



مكتبة العفيرة



٩

مِنْ عَبْدِ الْمُحَمَّدِ الطَّائِبِ



الكتاب والطوفان

عبد الغني الزنجي

مِنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ



الكتاب والموظفين

عبد العزيز الزنجي

الطبعة الأولى

جادي الأولى ١٣٩٣ هـ

يونيه ١٩٧٣ م

الطبعة الثانية

الحرم ١٣٩٣ هـ

يناير ١٩٧٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باسم الله الاكرم ، الذي علم بالقلم
علم الانسان ما لم يعلم

والحمد لله الذي خلق الانسان علمه البيان .
والصلاة والسلام على رسوله الامي الامين
القائل : « ان من البيان لسحرا » ، الذي
استغان بالكتابة والكتاب في قيد الوحي ،
ونشر الرسالة .

« اكرموا الكتاب فان
الله تعالى اجرى
الارزاق على ايديهم »

عبد الحميد الكاتب

المقدمة

بقلم فضيلة الشيخ ناصر بن حمد الراشد

الرئيس العام لتعليم البنات

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فقد رغب الي الأستاذ الكريم عبد العزيز الرفاعي أن أضع مقدمة للرسالة التاسعة من ((المكتبة الصغيرة)) التي خصصها لنشر رسالة الكاتب المبدع ((عبد الحميد الكاتب)) إلى الكتاب ، وحينما تصفحتها اذا بالناشر الكريم لم يدع مجالاً لغيره ، فقد عني حفظه الله ، بهذه الرسالة القيمة ، من حيث تناسق نصّها ، ثم واصل جهده بإعداده ترجمة وافية لصاحب هذه الرسالة يحتاج إليها ويستفيد منها كل معنى بذلك ، ثم أعقب هذا الجهد بشرح غريب ألفاظها ، وقام بتحليل نصوصها ، ثم نسق هذه النصوص القيمة وبوّبها حتى بلغت بنودها ((٧٥)) بنداً .

أما الرسالة ، فإنها تحفة أدبية لغوية عز وجود مثلها وهي مما كتبه الرعيل الأول ، الذي نتلف الى الإطلاع على تراثه العزيز ، والتثقف بثقافته الأصيلة ، فان هذه الرسالة من أقدم ما كتب مما وصل إلينا ، وسيرى فيها القارئ ملامح عن أسلوب الكتابة في ذلك العصر ، ونوع العلاقة ما بين

الرئيس ، والرؤوس من المشتغلين بالدولة ، الذين نَعبر عنهم الآن بالموظفين ، وتوضح هذه الرسالة أن الموظف في ذلك العهد من أطول الناس باعاً في الفضل ، وغزارة العلم ، والتحلي بكريم السجايا والأخلاق ، ورسالة عبد الحميد جمة الفوائد ، فهي صادرة عن شخص تسنم من المجد ذراه في علمه الواسع وأدبه الجم ومركزه المرموق ، اذ مركزه يكاد يكون المركز الثاني بعد رئيس الدولة في أكبر دولة في العصور الاسلامية حيث اقتد من الأندلس غرباً الى الهند شرقاً ، فجاءت رسالته كما قيل « كلام الملوك ملوك الكلام » جاءت أصيلة في لغتها بارعة في أسلوبها ، مليئة بالمعاني الجليلة ، والحكم البليغة ، ونتائج تجارب طويلة ، وبالجملات فاني لم أطلع على شيء كتب في مثل موضوعها ، فهي جديرة بالاهتمام ، وتكرار المطالعة .

ولا شك في أن القارئ سيجد تفاوتاً ما بين العاملين في الدولة في عهد عبد الحميد وبين العاملين في عصرنا ، فسمو الثقافة وتفنن المعرفة والتخلق بالأخلاق الكريمة وحسن المعاملة إلخ كل ذلك يتخلف فيه العاملون في عصرنا عن أسلافهم الأكارم .

ولعل الله أن ينفع بنشر هذه الرسالة ؛ أجزل الله مثوبة الناشر الذي قام بنشرها بنية حسنة ، والله الموفق .،

١٣٩٢/١٢/٢١ هـ

تمهيد

فكرة اخراج هذه الرسالة، تعود الى صاحب الفضيلة
الاستاذ الجليل الشيخ « ناصر بن حمد الراشد » الرئيس
العام لتعليم البنات .. فقد اقترح عليّ فضيلته اخراجها ضمن
سلسلة « المكتبة الصغيرة » ، لما ضمت من ارشادات
قيّمة بالنسبة للموظفين ، عدا كونها قطعة بيانية جميلة ،
لامام من أئمة البلاغة ..

ولقد ارتحتُ للفكرة .. ثم أخذت أدرسها متمهلاً ..
وكان أكثر ما يدعوني الى الانابة ، حذري من أن
تكون هذه الرسالة قد نشرت منفردة من قبل .. فيتكرر
الجهد ..

كنت أعلم حقا ، انها رسالة مشهورة ، تناقلتها
كتب كثيرة من كتب الادب والتاريخ ، وعُنت بابرازها ،
أو ايراد نصوص منها ..

ولكن هل انفردت بالنشر في كتاب خاص .. ؟
ظلمت أستقريء ..

ثم علمت انها نشرت على افراد في تونس سنة

١٣١٨ هجرية ..

وهنا ترددت ..

فما دامت قد نشرت من قبل ، ما فائدة نشرها من جديد اليوم ؟

ولم أكنتم فضيلة الشيخ فاصر ترديدي ..
ولكنه ظلّ يفتح أمامي أبواب العمل .. قائلاً .
ان الرسالة التي طبعت منذ ما يزيد عن سبعين عاما ، قد
أصبحت مجهولة .. ولا سبيل للحصول عليها ..
وكان هذا حقا ..

ومع ذلك .. فقد حرصت على أن أقف على نسخة
تونس .. لأرى كيف هي ؟ أهى مصححة مشروحة مهشّشة ؟
وأرسلت في طلب الطبعة التونسية مستعينا بعد الله
بالصديق العزيز الأستاذ صالح حداوي^١ المسئول عن المكتب
الثقافي السعودي في تونس . فسرعان ما أرسل اليّ صورتها
الفتوغرافية .. فاذا هي رسالة صغيرة جدا في حوالي عشر
صفحات .. ليس بها الا نصّ رسالة عبد الحميد وحدها ،
دونما أي شرح أو توضيح ..

في صفحة الغلاف النص الآتي :

« الرسائل والكتابة

» هذه رسالة في التعريف بوظيفة الكتاب لأبي

غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني
عامر بن لؤي بن غالب الكاتب البليغ
المشهور رئيس ديوان الانشاء •
بدولة مروان بن محمد بن
مروان بن الحكم
آخر ملوك بني
أمية •

« وتوفي عبد الحميد مقتولا مع مخدمه المذكور في
شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٣٢ رحم الله الجميع
طبع بالمطبعة الرسمية التونسية سنة ١٣١٨ »
وفي مستهل الصفحة الثانية ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •
الحمد لله • هذه رسالة جامعة في ضبط وظيفه
الكاتب ، والتعريف بصناعة الكتابة حررت بقلم عبد الحميد
الكاتب المشهور الذي يضرب به المثل في البلاغة ، وتقلت
هنا من مقدمة ولي الدين عبدالرحمان بن خلدون رحمهما
الله ، وهالك نصها : »

ثم يورد الناشر النص • ويقول في نهايته :

» انتهى بحروفه والحمد لله أولا وآخرا . تم طبعها
بالمطبعة الرسمية التونسية في الرابع والعشرين من رجب
الفرد سنة ألف وثلاثمائة وثمانية عشر للهجرة النبوية على
صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية . »

وليس في الرسالة أية إشارة الى اسم ناشر الرسالة ،
ولا الدوافع الى نشرها ..

ومن هنا .. رأيت أن أنشر الرسالة بما وسعني من
تحقيق ، وشرح لغريها ، وأن أترجم لعبد الحميد الكاتب
ترجمة مستوعبة ، فقد رأيت بعد استقراء المراجع ، ان هذا
الرجل على شهرته الواسعة ، ومكاته الرفيعة ، لم ينل في
كتب الادب والتراجم حقّه من التعريف ولا أدل على ذلك
من أن ياقوت الحموي لم يترجم له في معجم الادباء ،
مع أنه من الادباء في المقدمة ..

فظلت أبحث ، وأجمع تنف أخباره من هنا وهناك ،
وأتحري الحقائق ، ماوسعني الى ذلك سبيل ، فاذا أنا أمام
عمل أوسع من مجرد تقديم الرسالة وحدها وهو ، الترجمة
لعبد الحميد باستيعاب ..

ولدى تأمل النص لايراده ، وجدته يختلف في بعض
عباراته من مرجع لآخر ، فرأيت أن أجعل اعتمادي ، في

الدرجة الاولى ، على أقدم المراجع ، لذلك اخترت نص
الجهشياري في الوزراء والكتاب ، فالجهشياري أقرب
المراجع التي توفرت لدي ، الى عهد عبدالحميد .. فقد
نوفي سنة ٣٣١ هـ أي بحوالي مائتي سنة بعد مقتل
عبد الحميد ..

أما النسخة التونسية المطبوعة ، فقد اعتمدت نص
مقدمة ابن خلدون كما رأيت ..

على أنني استفدت من النصوص الأخرى في تعديل
بعض العبارات ، وقد أميل أحيانا الى أخذ عبارة ما من
هنا أو هناك ، اختيارا لما أعتقد أنه أوفى للعبارة ، أو أقرب
الى أصلها ، أو أدنى الى طبيعة السياق .

على أن الرسالة ، في مختلف المراجع ، لم تُشرح شرحا
وافيا ..

وفي نظري ، ان أكثر من اهتمّ بعبدالحميد الكاتب،
من المحدثين وعنى بإيراد نصوص وافية من رسائله ،
وأعطاه جلّ حقه من الترجمة ، هو الأستاذ « محمد كرد
علي » رحمه الله ..

ومع ذلك فإنه لم يشرح من غريب رسالته الى
الكتاب ، في كتابه « أمراء البيان » سوى ثلاث كلمات فقط :

هي (السوقة) وفسرها « خلاف الملك » و (شدا من العلم والأدب) ، وفسرها : « أخذ طرفاً منهما ، و (لاحتته) قال : « لاحتته ملاحاة ولحاه اذا نازعته » .

أما أحمد زكي صفوت ، فقد تتبع في كتابه « جمهرة رسائل العرب » عند إيراد نص الرسالة ، الكثير من غريبها بالشرح . . ومع ذلك ظلّ هناك غريب آخر بلا إيضاح . . ولكنني استفدت من شرحه أكثر من غيره . . وكان عليّ لكي أقرب ألفاظ هذه الرسالة ومعانيها الى القراء اليوم ، أن أقوم بأكثر من مجهود في تتبع اللفظ الغريب ، وحل المعنى المركب . . ثم تذليل النص بتحليله ، لكي يكون أدنى الى تعبيرات العصر ومصطلحاته . وهكذا فقد اتبعت خطة العمل الآتية :

التمهيد لهذا العمل . .

الترجمة لعبد الحميد الكاتب . .

تقديم نص رسالته مشروحا . .

تحليل النص ، ومقابلته بلغة العصر واصطلاحاته .

صياغة مضامين الرسالة في مواد . .

ثم أخذت أتخذ هذه الخطة .

وقد وجدتني كلما أمعنت في اعداد هذا العمل ،

أصبحت أكثر حماسة له .. ذلك أنني موظف من فئة هؤلاء
الكتاب الذين غناهم عبد الحميد في رسالته .. وبحكم
عملي أعرف بعض آفات الموظفين .. وأعرف تماما
ما يلاقيه بعض المراجعين من عنت بعضهم .. حتى لقد
غاب عن بعض هؤلاء الموظفين ، أنهم انما يأكلون عيشهم
لأجل هذا المراجع ، وانهم في حقيقة أمرهم خدم له وضعوا
في مراكزهم لخدمة الشعب ! .. تماما كما قال عبد الحميد
في رسالته ..

وهناك الروتين .. والمماطلة .. والاهمال ..
والعنجهية .. وأشياء أخرى كثيرة ، منها الصغير ومنها
الكبير ..

إذاً .. فان فريقا كبيرا من الموظفين في حاجة الى
توعية .. وان العمل على نشر هذه الرسالة ليحقق شيئا
من تلك التوعية ..

لا أزعم أنها تحقق التوعية كلها .. وانما هي تحقق
منها جانبا فحسب .. أما الجوانب الأخرى .. فذلك
يحتاج الى أن تتضافر عليه الجهود ، وتوضع من أجله
الخطط .. والعيون !

لم تكن - إذاً - الناحية البيانية التي تنجلي في

الرسالة هي الهدف من نشرها .. ولكن هذه الناحية جاءت
كسبا آخر ، يضاف الى الهدف الاساسي ، وهو نشر
التوعية الوظيفية .. تماما كما تقدم الدواء في غلاف من
السكر السائغ .. المسوَّغ ..

بمعنى آخر ، فإن هذه الرسالة ، كما أنها تستهدف
الكتاب والموظفين ، فانها أيضا ، تحفة أدبية تستهوي
المثقفين وشدة الادب .. وليس ثمة شك أن عددا كبيرا
من الموظفين هم من المثقفين وشدة الادب !

كما أن المعنيين بأدب التراجم ، سيجدون ان شاء الله
في ترجمة عبد الحميد ، ما قد يرضي شوقهم الى ترجمة
أقرب ما تكون الى الوفاء ..

وانني لأحمد الله تعالى أولا وأخيرا ، ومنه أستمد
دائما العون والتوفيق .

كما اني أشكر كل من أعان على هذا العمل ، ومن
كان سببه الاول ، فجزى الله الجميع خيرا .

عبد العزيز الرفاعي

الرياض ٩-١٢-١٣٩٢ هـ

البَابُ الْأَوَّلُ

عبد المحمود الكاظمي

مه هو عبد الحميد الكاتب ؟

علم من أعلام البلاغة العربية ، بل هو منها في الذروة .. لا يكاد يدانيه في ميدانها أحد من قدامى بلغاء العرب .. حتى لقد قيل عنه ذلك القول المشهور « فتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .. »

وهو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري ، وتمضي بعض المصادر بنسبه فتصل به الى قريش ، فتقول : عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك ابن حجر ، بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب .. على أن المرجح أنه مولى العلاء بن وهب العامري ، فالعلاء اذن هو الذي يتصل نسبه بعامر بن لؤي بن غالب ، ومن هنا انتسب الى بني عامر ف قيل عنه العامري •

والرواية التي تجعله مولى تدره الى أصل فارسي ، وتجعل جدّه من سبي القادسية ، وفي هذه الحالة يكون أحد أجداده هو الذي انضم ولاؤه الى أحد بني عامر بن لؤي .. وما دام عبد الحميد قد عرف بإجادته للغة الفارسية ، فإن احتمال انتمائه الى أسرة فارسية هو الاحتمال المرجح •

ويكفي أن نقف في نسبة حيث نقف بمعظم المصادر
فنقول : عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري •
ويلقبه الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في البيان والتبيين ، بعبد
الحميد الأكبر ، ويتابعه في ذلك ابن عبد ربه صاحب العقد
الفرید (ت ٣٤٠ هـ) ، ونعرف من نصوص الجاحظ أن
هناك عبد الحميد الأصغر ، وهذا كان كاتباً لسليمان بن
عبد الملك ، ولكن بروكلمان في تاريخ الادب العربي يجعل
عبد الحميد الكاتب هو عبد الحميد الأصغر ، دونما تعليل ،
وهم من كل ذلك ، أن اللقب انما أطلق تميزاً ،
لا تفضيماً ، وان كان صاحبنا يستحق التفضيم حقاً ! •

نشأته

ولا يعرف تاريخ مولد شيخ الكتاب ، ولكن اذا ضحَّ
أنه كتب لعبد الملك بن مروان ، الذي ولي الخلافة سنة
٦٥ هـ ، وتوفي سنة ٧٥ هـ وافترضنا أنه كتب له
في أخريات أيامه (أي أيام عبد الملك) فان عبد الحميد
يكون حين مقتله سنة ١٣٢ هـ قد نيف على السبعين ^(١) ،

(١) يقول الدكتور « عمر فروخ » في كتابه « تاريخ الادب العربي » « لعل
مولد عبد الحميد بن يحيى كان في سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م) في مدينة الانبار
على نهر الفرات ثم انتقل به أهله الى الرقة » ص ٧٢٣ .

ولكنني أستبعد هذا لان عبد الحميد انما تخرج في الكتابة على يد « سالم بن عبدالله » مولى هشام بن عبد الملك ، وكاتبه ، وكان سالم ختنه - زوج أخته - وهو الذي قرّبه الى هشام ، حتى كتب له . . وهشام انما تولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ وتوفي سنة ١٢٥ هـ . فاذا افترضنا أنه كتب لهشام بعد أن تجاوز العشرين ، وانه التحق بالكتابة عنده منذ أول عهد خلافته ، فانه يكون قد توفي بعد أن جاوز الخمسين ، وكما لا نعرف تاريخ مولده على نحو محدد ، فانا لا نعرف أيضا مكان مولده .

ولكن ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) يذكر انه كان من أهل الأنبار^(١) ، وسكن الرقة . . ويدل نص أورده الجهشيارى في « الوزراء والكتاب » من نماذج نشره ، انه كتب عند هزيمة مروان بن محمد من فلسطين في آخر حرب كانت له ، وهو يرافقه - الى أهله وأقاربه الذين كانوا ينزلون بالقرب من الرقة ، بموضع يعرف بالحمراء ، يعزيهم في نفسه .

(١) يذكر « ياقوت » في معجم البلدان أكثر من موضع يعرف بالانبار ، منها مدينة قرب بلخ ، ومنها مدينة غربي بغداد ، على بعد أربعين ميلا منها ، جدّ عمرانها أبو العباس السفاح ، وهذه أقرب الى المناطق التي ترددت أسماؤها في تاريخ حياة عبد الحميد الكاتب .

ويعني هذا أنه من أهل الرقة ، أو انه أقام بها وقتنا
يصح معه أن يعتبر من أهلها، ويؤيد هذا ان العلاء بن
وهب^(١) ، - الذي إليه ينتمي جدعبد الحميد بالولاء - كان
قد استعمله عثمان رضي الله عنه على الجزيرة سنة ٣٢ هـ
فأقام في الرقة ..

والرقة في شرقي الفرات ، واذا اعتبرت الرقة من
الشام (وهي الآن من سوريا) ، فان عبد الحميد الكاتب
يعتبر من أهل الشام ، وهو كذلك عند كثير من مترجمي
حياته ..

أما اذا اعتبرنا نشأته في الانبار ، فهو اذن عراقي ،
وكذلك الحال اذا اعتبرنا ان الرقة كانت عراقية ، ويؤيد
هذا أن عبد الحميد الكاتب كان يعمل مدرسا في الكوفة ،
ويتنقل بمهمته هذه بين المدن العراقية في أغلب الظن ، بيد
أن نسبته الى الشام تظل هي الأرجح ، كما أسلفت .

على أن هناك من جعل أصله من قيسارية ثم سكن
الشام ، كما قال ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) • وقيسارية

(١) العلاء بن وهب بن عبد بن وهبان العامري القرشي ، أسلم يوم الفتح ،
وشهد القادسية وتوفي نحو سنة ٣٥ هـ .

مدينة فلسطين^(١)؛ فهو أيضا شامي بهذا الاعتبار •

أما ما ذهب إليه صاحب « ايضاح المكنون » الذي جعله بغداديا •• اذ يقول في التعريف به : « عبدالحميد •• الكاتب البغدادي المشهور » فلا أدري من أين أتى بذلك ، ومن المعروف أن عبدالحميد توفي قبل أن تؤسس مدينة بغداد ، وصاحب ايضاح المكنون متأخر جداً على أي حال ، فقد توفي اسماعيل باشا الباباني (وهذا اسمه) سنة ١٣٣٩ هـ على أنه قد يقصد من نسبته الى بغداد ، أن يجعله عراقيا •

(١) وقيسارية أيضا مدينة كبيرة بتركيا (بديار الروم سابقا) ، فهناك احتمال أن يكون عبد الحميد منها يدل على ذلك عبارة ثم سكن الشام الواردة في قول ابن كثير ، لان قيسارية فلسطين تعتبر على ساحل بحر الشام ، ولكنني أستبعد هذا الاحتمال ، وأرى ان عبد الحميد انما نشأ في الجزيرة وتنقل بين الشام والعراق .

تضافته ومكانته

وليس لدينا تفاصيل كافية عن نشأة عبدالحميد الكاتب ، تُحدِّثنا عما تلقاه من علوم ، الا أن هذه الدرجة التي اكتسبها في مجال التعليم ، حينما كان معلماً ، تدلُّ على أنه كان على حظ وافر من التعليم ، وانه أتقن أدواته ، يظهر ذلك في استاذيته التي تجلت فيما بعد .. حينما أصبح علماً ذائع الصيت .. بل مفخرة لا تكاد تدانيها في « الكتابة » مفخرة أخرى .. حتى لكان خصوم الامويين يحسبون ألف حساب لكلمته .. وحتى يُروى ، أن أبا مسلم الخراساني ، حينما تلقى رسالة من مروان بن محمد بقلم عبدالحميد ، خشي ان هو قرأها أن تؤثر فيه فأحرقها قبل أن يقرأها .. وكتب على جذادة منها الى مروان :

محا السيف اسطار البلاغة واتحى
عليك ليوث الغاب من كل جانب
فان تقدموا نُعملُ سيوفا شحيذة
يهون عليها العتب من كل عاتب

ولقد كان أبو جعفر المنصور كثيرا ما يقول ، بعد
افضاء الامر الى بني العباس : غلبنا بنو مروان بثلاثة:
بالحجاج ، وبعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وبالمؤذن
البلعكي^(١) .

وكما مرّ بنا ، فان استاذ عبد الحميد في الكتابة كان
زوج أخته ، سالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك .
وجدير بالذكر هنا ، ان الجهمشياري^(٢) ، في كتابه
« الوزراء والكتاب » لم يذكر اسم عبد الحميد ضمن
كتاب خلفاء بني أمية ما عدا مروان بن محمد .. فاذا
اعتمدنا على ذلك ، فان عبد الحميد لم يكن من مشهوري
الكتاب قبل عهد مروان بن محمد ، وهذا لا يمنع أن
يكون قد كتب قبل مروان لغيره من الخلفاء الامويين .

وقد حدثنا الاستاذ « محمد كرد علي » في كتابه
« أمراء البيان » ، ان عبد الحميد كتب (قليلا) عن هشام
ابن عبد الملك ، كما عرف من رسالة كتبها عن هشام الى
يوسف بن عمر الثقفي وهو باليسن ، وقد كان هذا على
اليمن منذ سنة ١٠٧ .. ويستنتج الاستاذ محمد كرد علي

(١) كان مشهورا بحسن الصوت ، وجمال الأذان .

(٢) محمد بن عبدوس الجهمشياري توفي سنة ٢٣١ هـ .

رحمه الله من ذلك أن ديوان هشام كان المدرسة الاولى التي تخرج بأساتذتها عبدالحميد في علوم الانشاء^(١) . وهذا يُرَجَّح عندي ، ان عبدالحميد لم يكتب لعبد الملك بن مروان ، والا لهيأه ذلك لان يكون في عهد هشام أكثر شهرة ، فان شعلة النبوغ غالبا لا تخفى .. أقول : غالبا وأحسب أن الذين ذكروا اسم عبدالملك انما كانوا يقصدون يزيد بن عبد الملك ، فكان هناك وَهُمْ أو حذف ذهب بصدر الاسم ، فقد ذكر اسم يزيد بن عبد الملك بين من كتب لهم عبدالحميد ..

وفي العراق اتخذ تعليم الصبيان مهنة له .. ينتقل بها في البلدان .. وهي مهنة تصقل العلم ، وتثبتته ، وتدفع صاحبها — اذا كان ذا همة — الى طلب المزيد من المعرفة .. ولعل هذا الطلب كان حافزه لأن ينتقل من بلد الى آخر . ولقد كان المستوى الرفيع الذي وصل اليه عبدالحميد في أدب الانشاء ، خير دليل على الشأو الذي بلغه في طلب العلم ، ونستشف كثرة اطلاعه وحفظه وسعة ثقافته من قدرته على الاستشهاد ، وحل معاني الشعر ، وطاقته العجيبة على الاستطراد والافاضة ، واستعمال

(١) أمراء البيان ص ٣٢ طبع دار الايام .

الالفاظ ، وتنويعها وتلوين العبارة • ولقد أعرب عن ذلك ابن خلكان حينما قال : « كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والادب اماما » (١) •

واذا ذهبنا تتبع روافد ثقافة عبد الحميد بن يحيى ، نجد أن رسائله ، تنمُّ عن تضلعه في الثقافة العربية ، فقد أتقن علوم اللغة وأجادها ، وأحاط احاطة واسعة بالمفردات العربية واستعمالاتها المختلفة •• ولا أدل على ذلك ، من وصفه لسائس الفرس ، واستعراضه لاحوالها ، في لغة شديدة الارتباط بلغة الاقتحاح من فصحاء العرب •• (٢)

ويدل على سعة اطلاعه على اللغة العربية وألفاظها ، قدرته على التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من عبارة ، يفاير بين ألفاظها •

ولا شك أن ثقافة عبد الحميد اعتمدت على القرآن الكريم منذ الاساس ، فقد كان معلم صبيان ، وتعليم الصبيان في البلاد الاسلامية ، انما يعتمد على القرآن

(١) ص ٢٩٤ ج ٢ •

(٢) راجع ذلك في نص الرسالة •

الكريم في الدرجة الاولى ..

وقد ظهر تأثره بالقرآن الكريم في أسلوبه .. وفي
استشهاده بالآيات •

قال الاستاذ خليل مردم بك رحمه الله : « وللقرآن
والثقافة الاسلامية أثر ظاهر في رسائل عبد الحميد ، فانه
يستشهد بالآيات ، ويستعين بمعانيها وألفاظها ، كقوله في
الضحاك الخارجي : —

« يدعو الى المعصية والفرقة ، والمروق من دين الله
الى الفتنة ، بغير هدى من الله ولا بيان ، ساء ما كسبت له
يداه ، وما الله بظلام للعبيد ، وساء ما سئّلت له نفسه
الأمر بالسوء ، والله من ورأئه بالمرصاد ، وسيعلم الذين
ظلموا أي منقلب ينقلبون » وكقوله في فتنة بعض العمال :
« ... الى نزل من حميم ، وتصلية جحيم .. وكذلك
يفعل بالظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون • »^(١)

وفي مجال ثقافته الاسلامية ، نجد شواهد كثيرة ،
يحدثنا عنها أيضا الاستاذ خليل مردم رحمه الله : —

« أما الروح الاسلامية ، فلانها أقوى عنصر في أدبه ،
فحمد الله ، والصلاة على نبيه ، بصور شتى والأخذ بأدب

(١) الجزآن ١٢ و ١١ من مجلة المجمع العلمي العربي ص ٢٩٨ .

السنة ، والوقوف عند حدود الدين ، والتوكل على الله ،
وتفويض الأمر اليه والائتمار بأوامر الشريعة ، والاكتثار
من استعمال المصطلحات الاسلامية كالربوبية ،
والوحدانية ، والفردانية ، واللاهوتية ، والرسالة ، والنبوة
والخلافة والايان ، والكفر والجهاد ، أكثر من أن تحصى
في رسائله ، كقوله : « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام
بنفسه ، وارتضاه ديناً لملائكته وأهل طاعته من عباده ،
وجعله رحمة وكرامة ، وتجارة وسعادة ، لمن هدى من
خلقه ، وأكرمهم وفضلهم ، وجعلهم من أوليائه المقربين
وحزبه الغالبين .. الخ » (١) .

وفي البحث عن روافد ثقافة عبد الحميد ، نجد أيضاً
أنه كان معجباً كل الاعجاب ببلاغة علي بن أبي طالب رضي
الله عنه ، فقد سئل ما الذي خَرَّجَكَ في البلاغة ؟ فقال :
حفظ كلام الأصلع . يعني علياً .

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن ذلك ، فيقول :
« أراد عبد الحميد أن يصف السلاح فأخذ من
الشعر ، وصف الدرع ، والسيف ، والرمح ، والقوس ، على نحو
ما كان يصفها الشعراء ، فشر في رسالته « يقصد رسالة
الصيد » كثيراً من الاوصاف التي ذكرها أوس بن حجر في

(١) المرجع السابق ص ٢٩٨ .

قصيدته هذه :

اني امرؤ أعددت للحرب بعدما
رأيت لها نابا من الشر أعصلا «
ثم أورد القصيدة .. (١) « ١٠ هـ

واذا بحثنا عن روافد أخرى ، لثقافة عبد الحميد
الكاتب ، في غير اللغة العربية ، نجد أنه قد نشأ في أسرة
ذات جذور فارسية ، وانه قد أتقن لغة الفرس ، وقرأ فيها ،
واطلع على آدابها ، وتأثر بهذه الآداب ..
يحدثنا بذلك أبو هلال العسكري في كل من كتابيه
« الصناعتين » و « ديوان المعاني » ..

فيقول في « الصناعتين » ص ٦٩ في الفصل الثاني :
« .. ومن عرف ترتيب المعاني ، واستعمال الالفاظ
على وجوها بلغة من اللغات ، ثم انتقل الى لغة أخرى ،
تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الاولى ، ألا
ترى أن : « عبد الحميد الكاتب » استخراج أمثلة الكتابة
التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ، فحوّلها الى
اللسان العربي » ..

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٦٤ .

وجاء في كتاب « ديوان المعاني » في باب « جمل في
بلاغات العجم » ص ٨٩ ج ٢ قوله :

« .. العجم والعرب في البلاغة سواء ، فمن تعلم
البلاغة بلغة من اللغات ، ثم انتقل الى لغة أخرى ، أمكنه
فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الاولى ، وكان عبد
الحميد الكاتب ، استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من
اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي » .

وكما نرى ، فان أبا هلال العسكري ، دلنا على أن
عبد الحميد كان يتقن الفارسية ، ولم يكتف بأن يذكر لنا
تأثر عبد الحميد بهذه اللغة ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ،
حينما قال انه ترسم نهجها ، واحتذى طرائقها ..

وأبو هلال فارسي الاصل ، فهو قد يتحدث في ذلك ،
عن علم .. ولكننا نظل في شك من الأمر ، تجاه هذا
القول الذي أرسله ارسالا ، ولم يُقم عليه دليلا ، وكان في
امكانه أن يفعل ، لصلته بالثقافة الفارسية ..

وللمؤلفين المعاصرين أقوال مختلفة في أمر نقل
عبد الحميد طريقة الرسائل الفارسية الى اللغة العربية ، ولا
يسعني هنا التعرض لذلك بتفصيل ، ولمن شاء/الرجوع الى

« النشر الفني » للدكتور زكي مبارك^(١) ، و « تاريخ الادب العربي » للدكتور عمر فروخ^(٢) ، و « تاريخ الادب العربي » لشوقي ضيف ، وتاريخ الادب العربي لبروكلمان .

واذا كنا لا نماري في معرفة عبدالحميد للغة الفارسية، وتأثره بها على نحو ما .. فاننا لا يسعنا أن نسلم مع الدكتور طه حسين بمعرفته للغة اليونانية ، لمجرد الاستنتاج البعيد ، الذي لا يستند على دليل قوي ..

فلا يكفي أن نجد في اسلوب عبدالحميد استمالة مسرfa للحال ، لكي نقول أن ذلك من شأن الاسلوب اليوناني .. وان عبدالحميد نقل هذا الاسلوب الى اللغة العربية^(٣) .

ان مجرد هذا الاستنتاج لا يكفي ، ما لم يقيم نص على أن عبدالحميد كان يعرف اليونانية ..

ولو قال طه حسين انه متأثر باللغة اليونانية تأثرا غير مباشر عن طريق أستاذه سالم الذي كان يتقن هذه

(١) ج ١ ص ٦٠ وما بعدها .

(٢) ج ١ ص ٧٢٥ وما بعدها .

(٣) حديث الشعر والنثر ص ٤٤ .

اللغة^(١) ، لوجدنا في كلامه شيئا من الوجاهة .. ولكنه قال انه كان « شديد الاتصال باليونانية » .

وقد ناقش هذا الرأي من المؤلفين المحدثين الدكتور « شوقي ضيف » في كتابه « تاريخ الادب العربي - العصر العباسي »^(٢) ؛ كما ناقشها الدكتور حسين نصار في كتابه « نشأة الكتابة الفنية في الادب العربي » ، فقد قال عن ظاهرة استعمال الحال انه « لا يكثر منها وحدها ، بل لعنه يأتي ببعض الصيغ الاخرى أكثر مما يأتي بها ، فتراه يكثر من التفضيل ، والتمييز ، والمفعول ، والمفعول لأجله ، وأساليب العلة ، ومما لا شك فيه أن صيغة التفضيل مع التمييز أكثر دورانا في كتابته من الحال .. »^(٣) .

ان الذين يلحقون طريقة عبد الحميد في رسائله أو أسلوبه الادبي فيها - باللغة الفارسية تارة ، أو اللغة اليونانية تارة أخرى ، كأنهم يريدون أن يجردوه من قدرته على الابتكار ، ويحرموه هذه الاولوية السابقة في مجال الرسائل الادبية .. دونما أن يملكوا دليلا ناصعا قويا !

(١) ص ١٧١ من الفهرست لابن النديم .

(٢) ص ٤٧٧

(٣) ص ١٦٤

ومهما يكن الأمر .. ومهما اختلفت آراء النقاد من قدامى ومحدثين ، في منابع أدب عبد الحميد ، فقد أصبح في العربية أستاذ مدرسة ، هو فيها متبوع لا تابع .

عبد الحميد مروان بن محمد

واتصلت أسبابه بأسباب مروان بن محمد ، حينما كان هذا واليا على أرمينية ، قبل أن يتولى الخلافة .. ولقد وجد عبد الحميد حظوة ورعاية عظيمتين عند مروان فانقطع اليه .

ويروى عنه ، أنه حينما بلغ خبر تولية مروان الخلافة وكان في نفر من خاصته سجد مروان وأصحابه شكرا لله ، عدا عبد الحميد فانه لم يسجد ، فتساءل مروان قائلاً له : لم لا سجدت ؟ فقال : ولم أسجد على أن كنت معنا فطرت عنا ؟ فقال اذاً تطير معي .. فقال عبد الحميد : الآن طاب السجود وسجد . .

وتكشف هذه القصة عن حضور بديهة عبد الحميد ، وحدة ذكائه .. كما تكشف عن حبه العميق لمروان . ولا يقلل من أثرها أن يروى مثلها عن سعيد بن الوليد

الكلبي ، كاتب هشام ، حينما تولى هشام الخلافة^(١) ..
ذلك أن لعبد الحميد قصصاً أخرى ، تدل على الذكاء
وسرعة البديهة ، وحسن التصرف ، ستأتي في مواقعها ان
شاء الله من هذه الترجمة ١٠٠

وقد ظل عبد الحميد في معية مروان بن محمد ،
منقطعا اليه ، أثيرا عنده ، ملازما له ، وكانت الرياح تهب
عاصفة عنيفة في وجه مروان بن محمد ، لتقتلع جذور
الخلافة الأموية ، وتنقلها الى بني العباس ..

ولم يكن مروان ، ضعيفاً ولا خوّاراً ، ولكن الأحداث
كانت أكبر من عزيمته ، والظروف كانت قد استحكمت
أسبابها ضده .. حين لا ينفع حزم ولا عزم !

وكان رجله الاول ، وكاتبه المفضل ، عبد الحميد ،
لا ينقصه ذكاء ولا دهاء ، يجمع إليهما بلاغة ساحرة تنحي
لها الرؤوس اجلالا وإكبارا وإعجابا .. يصحبها الاخلاص
لسيده ، بل التفاني في سبيله حتى الموت .. فلم يكن
عبد الحميد من يهاب الموت ، أو يخشى الرزايا ..

(١) الوزراء والكتاب - للجهمياري ص ٥٩ .

كان يكافح بقلمه . ويقاوم بكل ما أوتي ذلك القلم
من براعة وإبداع .. وبكل ما أوتي عقله النير من ذكاء .
ولكن الاحداث كانت — كما قلت . عظيمة ، وكانت
روافد السيل تتجمع من كل مكان ، حتى اقتلعت دوحه
بنى أمية من الشرق ..

وإذا أخذنا في الاعتبار ملازمة عبدالحميد الكاتب
لمروان تلك الملازمة الكاملة ، فانا لا نعجب ان عاش معه
فترة من الحياة المضطربة المليئة بالفتن والحروب .. فقد
كان مروان قبل أن يتولى الخلافة في مركز حماية الثغور .
ومقاومة ثورات الخارجين على الخلافة .

ثم دخل مع بعض عسومته في صراع من أجل الخلافة،
حتى استقر له أمرها في الشام ، ولم يكد يفعل ، حتى دخل
في صراع جديد عنيف مع بنى العباس ، وقد اضطره هذا
الصراع أن ينسحب من اقليم الى آخر ، مفارقا موطن
آبائه وأجداده ، حتى انتهى به الامر الى مصر ، حيث لجأ
الى قرية أبو صير ، ومن ثم أخذ فقتل ..

وكان عبدالحميد أثناء كل تلك الاحداث ، في خاصة
مروان لا يفارقه ، حتى اختتم حياته بالخاتمة نفسها ..

فأخذ هو الآخر وعذب ، وقتل ..!!

ولقد كان مروان ، يشعر بخطر شخصية عبدالحميد ،
وانه ان لجأ الى خصومه ، فسيعرفون له مكائنه ،
ويكرمونه ، ويضعونه في المكان اللائق .. وقد عرض عليه
فعلا أن يفعل ذلك حينما تأزمت الامور ، اشارا لحياته ،
ولكن عبدالحميد ، رفض باصرار أن يتخلى عن صاحبه
وصديقه في أيام محنته ، والقصة ، كما يرويها الجهشيارى
في « الوزراء والكتاب » هي بنصها :

« لما قوي أمر بني العباس وظهر ، قال مروان لعبد
الحميد : انا نجد في الكتب ، ان هذا الأمر زائل عنا
لا محالة ، وسيضطر اليك هؤلاء القوم (يعني ولد
العباس) ، فصر إليهم ، فاني أرجو أن تتمكن منهم
فتنفعني في مخلفي ، وفي كثير من أسبابي ^(١) ، فقال له :
وكيف لي أن يعلم الناس جميعا ان هذا عن رأيك ؟ وكلهم
يقول : اني غدرت وصرت الى عدوك ، وأنشد :
أسر وفاء ، ثم أظهر غدره

فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره !

(١) يقصد أن ما ستصير اليه من مكانة عندهم ربما استطعت بها نفقي فيما
سأخلفه ورائي من أهل وأقارب ومخلفات فتدرا عنها الدمار والهلاك
والمصادرة .

وأشدد أيضا :

فذنبي ظاهر لا غيب فيه
للأئمة وعذري بالمغيب

فلما سمع ذلك مروان علم أنه لا يفعل ، ثم قال له
عبد الحميد : الذي أمرتني به أتفع الأمرين لك وأقبحهما
لي ، ولك علي الصبر معك الى أن يفتح الله عليك ، أو
أقتل معك » •

ولقد ضرب عبد الحميد بهذا الموقف مثلاً أعلى في
الوفاء ، بل في التضحية بالنفس في سبيل صاحبه ••

وكما كان مروان يفكر في مصير رجله الاول ، فان
عبد الحميد الكاتب كان يفكر منذ البداية في مصير سيده ،
فقد كان يلح بذكائه وبعد نظره طلائع العاصفة التي تهب
في عنف على ملك بني أمية ، لذلك أشار عليه قبل استفحال
الامور ، وقبل أن تغيب شمسهم ، أن يجعل بينه وبين
ابراهيم بن محمد بن علي صهرا قائلاً له : « فان ظهر كنت
قد أعلقت بينك وبينه شيئاً وان كفيته لم تشن بصهره » •
ولكن مروان رفض أن يلتصق النصر بمثل هذه الوسيلة !

مع ابن المقفع

وكان عبد الحميد ، يعرف أقدار ذوي الإقدار من
النابعين النابهين .. وبذلك انعقدت بينه وبين ابن المقفع
صداقة متينة .. وقد كان ابن المقفع هو الآخر ، علما من
أعلام البلاغة ، وقمة من قممها الشامخة ..

ولئن جاز لعبد الحميد أن يحسد شخصا على نباهته
فإن عبدالله بن المقفع كان جديرا بحسده ، لما يتستع به من
طاقة فنية كبيرة في الصياغة الفنية ، وفي سعة الاطلاع .
ودقة التعبير ، وروعة الديباجة .. !

ولكن عبد الحميد ، وضع الحب موضع الحسد ..
وكذلك فعل ابن المقفع ، فمحض كل منهما الآخر الود ..
حتى بلغ ودهما حد التضحية .. ومرة أخرى أدع
الجهشيارى يصف قصة تضحية ابن المقفع ، وموقف عبد
الحميد الكاتب من هذه التضحية ، وسرعة بادرته .. قال
الجهشيارى في « الوزراء والكتاب » :

« وطلب عبد الحميد بن يحيى الكاتب . وكان صديقا
لابن المقفع ، ففاجأهما الطلب ، وهما في بيت ، فقال الذين
دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما :
أنا .. خوفا من أن ينال صاحبه بمكروه ، وخاف عبد

الحميد أن يسرعوا الى ابن المققع ، فقال : ترفقوا فان في علامات ، ووجلوا بنا بعضكم ، ويمضي بعض ، يذكر تلك العلامات لمن وجه بكم ، ففعل ذلك ، وأخذ عبد الحميد • واختيار عبد الحميد ابن المققع لصداقته ، أكد الأصلة الفنية في نفسه ، فهو يريد أن يعيش بصداقته أيضا في جو فني رفيع ، ولا يبعدان يكون كل من الكاتبين الكبيرين ، قد أثر في الآخر ، كما تفعل الصداقات من هذا النوع •• وحينئذ يصح أن ندخل في اعتبارنا أن عبد الحميد قد اقتبس من فن ابن المققع ، وان العكس أيضا صحيح •

خاتمته

لم يتسامح العباسيون مع عبد الحميد بعد أن ألقوا عليه القبض ، بل أمعنوا في النكاية به ، وتعذبه •• فقد أمر به المنصور فقطعت يداه ورجلاه ، ثم ضربت عنقه •• وقيل بل سلمه عامر بن اسماعيل الى أبي العباس (السفاح) ، فدفعه هذا الى عبد الجبار بن عبد الرحمن صاحب شرطته فقتله ، بعد أن عذبه بأن كان يحمي طستا ، ويضعه على بطنه ، وقيل على رأسه حتى مات •• !

ولما كان مقتل عبد الحميد مقترنا بتاريخ مقتل مروان وقد قتل هذا الأخير يوم الاثنين ثالث عشر ذي الحجة

سنة ١٣٢ هـ (٧٥٦٠ م) في قرية أبو صير بمصر ، فان وفاة
عبد الحميد تكون في هذا التاريخ أو بعده بقليل . .
والمرجح لدي هو أنه قتل مع سيده في مصر ، فذلك
أليق بما جاءت به أخبار وفائه ، ولزومه صاحبه ، ووجود
ذريته بعد ذلك بمصر ، كما سيأتي .

عقبه

ويحدثنا ابن خلكان في كتابه « وفيات الاعيان » ان
لعبد الحميد ولدا اسمه اسماعيل ، كان كاتباً ماهراً نبيلاً
معدوداً في جملة الكتاب المشاهير^(١) .
وكذلك يحدثنا الجهشيارى في كتابه « الوزراء
والكتاب » ، انه « كان لعبد الحميد عقب يسكنون مصر »
ولكنه يقول : « ولم يكن في أوائلهم من له نباهة ، فلما
صار « أحمد بن طولون » الى نواحي مصر ، اتصل به
أربعة نفر من ولده ، ويعرفون ببني المهاجر ، وكانوا
يكتبون قبله للحسين الخادم ، المعروف بعرق الموت ،
واستكتب أحمد بن طولون منهم « الحسن بن محمد بن
أبي المهاجر » ، وكان « علي بن محمد » أخوه أسنّ منه ،

واستعان « أحمد بن طولون » أيضاً بأخويهما وكانا يكتيان
بأبي القاسم ، وأبي عيسى ، وخصّوا جميعاً بأحمد بن
طولون ، وغلبوا عليه ، واستحكمت ثقته بهم ، وكانوا من
أنصب^(١) الناس ، وأشدّهم انحرافاً عن بني هاشم «^(٢)» .
ومن هذا النص نعرف أنه كان لعقب عبد الحميد شأن
في مصر ، ولكن مما يلفت النظر أن الجهشيارى ينفي أن
يكون لأوائلهم نباهة بينما يذكر ابن خلكان - كما مرّ -
أن ابنه اسماعيل كان كاتباً ماهراً شهيراً . بيد أننا لا نعرف
شيئاً عن اسماعيل هذا ، لا عن شهرته ولا عن آثاره ،
ويحتمل أن تكون شهرة اسماعيل في حياة والده قبل
الانتقال إلى مصر ، وإن أوائلهم في مصر لم تكن لهم نباهة .

آثاره

وليس لعبد الحميد مؤلفات كصديقه وصفيه عبدالله بن
المقفع . . ولكنه خلف مجموعة من الرسائل ، قدرها القدامى
بألف ورقة^(٣) ، وهي كما قلت تعتبر فناً متفوقاً نادر المثال . .

(١) أي كانوا من الناصية الذين يضمرون الكراهية لأهل البيت . (٢) ص ٨٢ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٧٠ ، ويقول جورجى زيدان في كتابه (تاريخ
آداب اللغة العربية أن في دار الكتب العربية بمصر رسالة خطية تنسب
لعبد الحميد ..

هل كان شاعراً؟

وأثر لعبد الحميد الكاتب شمر أيضا .. اذ يروي
الجهشياري له هذه الايات :

تَرْحَلْ مَا لَيْسَ بِالْقَافِلِ

وَأَعْقِبْ مَا لَيْسَ بِالزَّائِلِ^(١)

فَوَيْلِي مِنَ الْخَلْفِ النَّازِلِ

وَلَهْفِي عَلَى السَّلَفِ الرَّاحِلِ !

أَبْكِي عَلَى ذَا ، وَأَبْكِي لَذَا

بِكَاءِ الْمَوْلُوءَةِ الثَّائِلِ

تَبْكِي مِنَ ابْنِ لَهَا قَاطِعِ

وَتَبْكِي عَلَى ابْنِ لَهَا وَاصِلِ

فَلَيْسَتْ تَقْتَرُ^٢ مِنْ عِبْرَةٍ

لَهَا فِي الضَّمِيرِ وَمِنْ هَامِلِ^(٢)

تَقَضَّتْ غَوَايَاتِ سُكْرِ الصَّبَا^٣

وَرَدَ التَّقَى عَنْ الْبَاطِلِ^(٣)

(١) القافل : الراجع ، والابيات في الشباب ، والشيب والشيب .

(٢) تقتَر : تبخل : الهامل : المنسكب .

(٣) عن : جمع عنان . والعنان هو اللجام .

وإذا كانت هذه القطعة من شعره لا تشعرنا بالسلاسة
والرقة ، التي تعرف عن شعر بعض الكتاب — على قلته —
فانا نجد هذه الرقة في قطعة أخرى :

كفى حزنا اني أرى من أحبه
قريبا ، ولا غير العيون تترجم
فاقسم لو أبصرتنا حين فلتقي
ونحن سكوت خلطنا تتكلم^(١)

ولكن يبدو أن الجاحظ كان سيء الرأي في شعر
عبد الحميد حينما قال : « وكان عبد الحميد الأكبر وابن
المقفع^(٢) ، مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما ، لا يستطيعان من
الشعر الا ما لا يذكر مثله » .

ومهما يكن الامر فلم تتوفر لنا نماذج كافية من شعر
عبد الحميد ، تمكننا من الحكم له أو عليه ، غير ماسلف
ذكره .. وهو غير كاف .

(١) هذا الشطر يذكرني بقول الشاعر :

حواجبنا تقفي الحوائج بيننا

ونحن سكوت والهوى يتكلم

(٢) سئل ابن المقفع لم لا تقول الشعر فقال :

الذي أحبه لا يطاوعني أو لا يجيئني والذي يجيئني أو والذي يطاوعني
لا أحبه .

وأسلوب عبد الحميد الكاتب في النثر ، رائع جميل ، يتعد عن التزام السجع ، فهو مترسل .. وكثيراً ما يطيل في رسائله ، إلا حينما يقتضي الأمر الإيجاز فيوجز ، ويكون إيجازه حينئذ مركزاً جميلاً مؤدياً للغرض .

ومن بديع مختصراته ما كتبه يوصي بشخص : « حق موصل كتابي إليك كحقه علي ، اذ جعلك موضعاً لأمله ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصَدَّقَ أمله » . ومن رائع مطولاته رسالته المشهورة الى الكتاب ، ووصيته إليهم ، وهي التي أقدمها اليوم وأضعها بين يدي القارئ الكريم ، وهي رسالة معروفة في كتب الأدب يسميها بعضهم « نصيحة الكتاب وما يلزم أن يكونوا عليه من الأخلاق والآداب » .

وقد أوردها الأستاذ محمد كرد علي ، بعد دراسة ضافية عن عبد الحميد وأدبه ، في كتابه « أمراء البيان » مع رسالته الأخرى الى ولي عهد مروان بن محمد ذاكراً ان هاتين الرسالتين تشكلان أطول رسائل عبد الحميد .. وقد أطلال عندهما الوقوف . وأتى برسائل أخرى

لعبد الحميد وكان نشرها أيضا في كتابه «رسائل البلغاء»^(١)
وقد أحسن في كل ذلك .

وقد اعتبر عبد الحميد أستاذ المترسلين ، أي الذين
لا يلتزمون السجع ، ولا يتكلفون ، قال ابن خلكان في كتابه
وفيات الأعيان لدى ترجمته له :

« عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره
اقتفوا ، .. وانه أول من أطال الرسائل ، واستعمل
التحמידات في فصول الكتب ، فاستعمل الناس ذلك
بعده . »

ويقول عنه الدكتور شوقي ضيف في كتابه « تاريخ
الأدب العربي ج ٢ : » وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كتاب
هذا العصر (أي عصره) وأبدعهم ، وقد سماه الجاحظ في
بيان عبد الحميد الأكبر^(٢) ، ونصح الكتاب بأن يتخذوا
كتابته نموذجا لهم . »

(١) « رسائل البلغاء » نشر في طبعته الأولى سنة ١٢٢٦ هـ نشره الشيخ
طاهر الجزائري بالتعاون مع الاستاذ محمد كرد علي ، ثم جدد الأخير طبعه
مع رسائل أخرى سنة ١٣٢١ هـ / ١٩١٣ م .

(٢) انما سمي الأكبر لان كاتباً آخر - كما عرفنا - كان يسمى عبد الحميد
وهو عبد الحميد الأصغر .

ويقول عنه ابن النديم في « الفهرست »^(١) :
« وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو
الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل ، واحد دهره ... »
ومن أشهر تلامذة عبد الحميد الكاتب في حياته ،
يعقوب بن داود ، الذي أصبح فيما بعد ، وزير الخليفة
المهدي ، فقد كان يكتب بين يديه ، وعليه تخرج •

وخلاصة القول ، ان عبد الحميد الكاتب ، كان بعيد
التأثير في الكتابة الفنية ، وانه أدخل على النشر الفني ، من
التطوير ، ما جعله بحق رائد مدرسة ثرية جديدة ، فهو
وان يكن قد استفاد من أعلام البلاغة قبله ، بدءاً بعلي بن
أبي طالب رضي الله عنه ، وائتهاءً باستاذه سالم ، فقد أرسى
بطرائق تعبيرية مبتكرة قواعد جديدة للنشر الفني ، اتبعها
الكتاب بعده عبر العصور ، حتى يومنا هذا •

حقاً لقد كان صديقه عبد الله بن المقفع رائداً آخر
ينافسه في هذا الميدان ، ولكن عبارة عبد الحميد ، في ميدانه
الذي تخصص فيه ، تظل أكثر نصاعة • ، ووضوحاً ،
ودلالة على المعنى المراد • وقد فضّله الدكتور طه حسين ،

على ابن المقفع في كتابه « من حديث الشعر والنثر » بعد
أن استعرض خصائص كل منهما^(١) .

وقد أوردت آراء بعض المؤرخين والنقاد في منزلة
عبد الحميد ، في مواضع متفرقة من هذا الكتيب^(٢) .

(١) ص ٤٨ و ٤٩ .

(٢) استعرض هذه الآراء الدكتور « حسين نصار » في كتابه « نشأة الكتابة
الفنية في الأدب العربي ص ١٦٦ وقال فيها عن عبد الحميد « .. كان
القمة التي وصلت إليها الكتابة الفنية الأموية ، وأخذت عندها صورتها
النهائية، وعندما جاء الكتاب بعده استمدوا تقاليدهم الكتابية، وقواعدهم
الفنية من هذا العلم البارز » .

البَابُ الثَّانِي

رِسَالَتُهُ إِلَى الْكِتَابِ

نص رسالته الى الكتاب

« أما بعد ، حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة ، وحاطكم ، ووفقكم ، وأرشدكم ، فإن الله جل وعز ، جعل الناس — من بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين — سؤوقاً^(١) ، وصرّفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم ، فجعلكم معشر الكتاب ، في أشرفها صناعة : أهل الأدب ، والمروءة ، والحلم والروية^(٢) ، وذوي الاخطار^(٣) والهمم ، وسعة الذرع^(٤) في الافضال^(٥) والصلة^(٦) ، بكم ينتظم الملك ،

(١) سؤوقاً جمع سؤوقه ، والسوقة : الرعية . وهذا نص الجهشيارى في الوزراء والكتاب ، وكذلك أورده محمد كرد علي في (أمراء البيان) ولكنه أورده في « رسائل البلغاء » « أصنافاً » بدلا من سؤوقا . وكذلك النص في « جمهرة رسائل العرب » لأحمد زكي صفوت ، وجاء بعدها فيه : « وان كانوا في الحقيقة سواء » وهو في مقدمة ابن خلدون « أصنافاً وان كانوا في الحقيقة سواء » .

(٢) الروية : الاناة وعدم العجلة والتفكير في الأمور ، وفي جمهرة رسائل العرب « العلم والرواية » .

(٣) ذوي الاخطار : اي من ذوي المكانة .

(٤) الذرع : الطاقة والوسع .

(٥) جمع : الفضل : وهو الاحسان والانعام .

(٦) الصلة : العطية والجائزة .

وتستقيم للملوك أمورهم ، وتديركم وسياستكم يصلح
الله سلطانهم^(١) ويجتمع فيئهم^(٢) ، وتعمر بلادهم ، يحتاج
إليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السني^٣
والدني^(٢) من ولايته ، لا يستغني عنكم منهم أحد ، ولا
يوجد كاف^(٤) الا منكم ، فموقعكم منهم موقع أسماعهم
التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم
التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون^(٥) ، أتم
— اذا آلت^(٦) الأمور الى موئلهـ^(٧) ، وصارت الى
محاصلها^(٨) — ثقاتهم^(٩) دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم
ونصحائهم ، فامتنعكم الله بما خصكم من فضل صناعتهم ،
ولا نزع عنكم سربال^(١٠) النعمة عليكم .

(١) سلطانهم : أي سيطرتهم وتمكنهم من الحكم ونفوذهم .

(٢) الفئ : الخراج .

(٣) السني : الرفيع أو الجليل ، والدني : الصغير أو الحقير .

(٤) كاف : أي من يكفي عنكم أي يغني في الأمور والاحداث .

(٥) البطش : الأخذ بالعنف .

(٦) و (٧) آلت : رجعت . موئلهـ : مرجعها .

(٨) محاصلها : أمكنة تحصيلها واجتماعها .

(٩) ثقاتهم : أهل الثقة .

(١٠) السربال : القميص أو الدرع ، أو كل ما لبس .

وليس أحد" من أهل الصناعات كلَّها أحوج الى استخراج خلال^(١) الخير المحموده ، وخصال^(٢) الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب ، ان كنتم على ماسبق به الكتاب من صفتكم^(٣) فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره ، الى أن يكون حليماً في موضع الحلم ، فقيهاً في موضع الحكم ، مقداماً في موضع الاقدام ، ومحجماً^(٤) في موضع الاحجام ، ليناً في موضع اللين ، شديداً في موضع الشدة ، مؤثراً للعفاف ، والعدل والانصاف ، كتوماً للأسرار ، وفياء عند الشدائد ، عالماً بما يأتي^(٥) ويذر^(٦) ، يضع الأمور في مواضعها ، قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه^(٧)

(١) و (٢) الخلال والخصال بمعنى واحد ، وهي الأخلاق سواء أكانت حسنة أو سيئة .

(٣) في « جمهرة رسائل العرب : » اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم .

(٤) المحجّم عن الأمر الذي ينصرف عنه ، وفي « جمهرة رسائل العرب » محجماً .

(٥) يأتي هنا بمعنى يأخذ .

(٦) يذر : يدع : يترك .

(٧) أحكمه : أتقنه .

فان لم يحكمه شدا^(١) منه شدةً وأ يكتفي به ، يكاد يعرف
 بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ، ما يرد^(٢) عليه
 قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر^(٣) عنه قبل صدوره ، فيعدّ
 لكل أمر عدته ، ويهيء لكل أمر أهّيته^(٤) ، فتتافسوا معشر
 الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ،
 وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض^(٥) ، ثم العربية^(٦)
 فانها ثقاف^(٧) ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فانه حلية^(٨)
 كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام^(٩)
 العرب والعجم^(١٠) وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم
 على ماتسمون^(١١) اليه بهممكم ، ولا يضعفن نظركم في

- (١) شدا من العلم والادب : حصل منه طرفا .
- (٢) ما يرد عليه : ما يدخل عليه من الأمور .
- (٣) ما يصدر عنه : أي ما يحصل منه من أعمال .
- (٤) الأهبة : العدة ، وفي « جمهرة رسائل العرب » عدته وعتاده .
- (٥) الفرائض : الأحكام المفروضة على العباد ، المراد علم الفقه ويدخل في ذلك علم الموارث .
- (٦) أي اتقان علوم اللغة العربية ، من نحو وصرف وغيرهما .
- (٧) أي التي تقومها وتجعلها حاذقة ماهرة .
- (٨) أي يحليها ويزينها .
- (٩) أيام العرب والعجم : حروبها .
- (١٠) تطلق العرب لفظ العجم ، وتقصد به الأمم التي ليست عربية .
- (١١) سما بمعنى ارتفع ، وتسمون اليه بهممكم ، أي تتطلعون اليه .

الحساب ، فانه قوام^(١) كُتَاب الخراج^(٢) منكم ، وارغبوا
 بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها^(٣) ، وسنصف الأمور
 ومحاورها^(٤) فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ،
 ونزهوا^(٥) صناعتكم وارباؤا^(٦) بأنفسكم عن السعاية^(٧)
 والنميمة^(٨) ، وما فيه أهل الدناءة^(٩) والجهالة^(١٠) ،
 وإياكم والكبر والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة^(١١) بغير
 إحنة^(١٢) ، وتحابوا في الله عزّ وجل في صناعتكم ،
 وتواصوا عليها ، فانها شيم^(١٣) أهل الفضل والنبيل
 من سلفكم^(١٤) .

- (١) قوام الشيء ، أي عماده الذي يعتمد عليه .
- (٢) الخراج : المال الذي كان يرد الى خزينة الدولة من الاراضي وخلافها .
- (٣) أي كبيرها وصغيرها .
- (٤) أي ما يحتقر منها . (٥) نزهوا : أبعدوا عنها ما يشينها .
- (٦) أربأوا بأنفسكم : ارتفعوا بها ، يدعوهم للترفع عما ذكر . .
- (٧) السعاية : الوشاية .
- (٨) النميمة : نمّ الحديث : أظهره بقصد الاساءة والوقية .
- (٩) الدناءة : الخساسة . (١٠) الجهالة والسفه والجفاء : الضلالة ؟
- (١١) مجتلبة : مكتسبة . (١٢) الإحنة : الحقد .
- (١٣) شيم : جمع شيمة : أي خصلة .
- (١٤) السلف : كل من تقدم من الأجيال : والمقصود هنا جيل الصحابة
 ومن تبعهم .

« وان نبا^(١) الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه
وواسوه ، حتى ترجع اليه حاله ، وان أقعد^(٢) الكبير^(٣)
أحدكم عن مكسبه ولقاء أخوانه ، فزوروه وعظموه
وشاوروه ، واستظهروا^(٤) بفضل^(٥) رأيه وتجربته ، وقديم
معرفته ، وليكن الرجل منكم على من
اصطنعه^(٦) واستظهر به ليوم حاجته اليه ، أحذب وأحوط
منه على أخيه وولده ، فان عرضت في العمل مَحْمَدَة
فليضفها الى صاحبه ، وان عرضت مذمة فليحملها من
دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملال^(٧) عند تغير
الحال ، فان العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه الى

- (١) نبا الزمان به : لم يوافقه ولم يسعده .
(٢) و (٣) أقعد الكبير : أي حال تقدمه في السن بينه وبين الكسب والاجتماع
بصحبه .
(٤) استظهروا : استعان .
(٥) بفضل رأيه : برأيه الراجح .
(٦) اصطنعه : أحسن اليه .
(٧) الملال : السأم .

المرأة^(١) ، وهو لكم أشد منه لها ، فقد علمتم أن الرجل منكم قد يصف الرجل إذا صحبه في بدء أمره من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ونصيحته . وكتمان سره وعفافه وتدييره ، بسا هو حري^(٢) أن يحقنه بفعاله ، في غير حين الحاجة الى ذلك منه . فابدلوا وفقكم الله ذلك^(٣) من انفسكم في حال الرخاء والشدة . والحرمان والمواساة ، والاحسان والاساءة ، والغضب والرضا ، والسراء والضراء ، فنعمت السنة^(٤) هذه لمن وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة .

(١) في « أمراء البيان » الى المرأة .. وفي مقدمة ابن خلدون جاء النص هكذا (... الى القراء ، وهو لكم أفسد منه لهم فقد علمتم أن الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب عليه من حقه فواجب عليه أن يبذل له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدييره أمره ماهو جزاء لحقه ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة اليه ، والاضطرار الى ماله فاستشعروا ذلك وفقكم الله .. الخ .) وفي نسخة الرسالة المطبوعة بتونس أسرع منه الى القراء بالفاء لا (القاف) ولعل ما أثبتته اقربها الى المراد .

(٢) حري : جدير .

(٣) ونص هذه الفقرة في جمهرة رسائل العرب هكذا « فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه الرجل يبذل له من نفسه مايجب له عليه من حقه ، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وصبره ونصيحته ، وكتمان سره وتدييره أمره ، ماهو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة اليه ، والاضطرار الى ماله فاستشعروا ذلك - وفقكم الله من انفسكم .. الخ .)

(٤) السنة : الشارة والعلامة .

« فإذا وُلِّي الرجل منكم ، وصيّر اليه من أمور خلق الله وعباده أمر ، فليراقب الله تعالى ذكره ، وليؤثر^(١) طاعته فيه ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، فإن الخلق عباد الله وأحبهم اليه أرفقهم بعباده ، ثم ليكن بالحق حاكما ، وللأشرف مكرما ومداريا ، وللفيء^(٢) مؤفرا ، وللبلاذ عامرا ، وللرعية متألفا^(٣) ، وليكن في مجلسه متواضعا ، حليما^(٤) ليئا ، وفي استجلاب^(٥) خواجه واستقضاء^(٦) حقوقه رفيقا .

« وإذا صحب أحدكم الرجل ، فليستشف^(٧) خلائقه ،

(١) يؤثر : يفضل ويختار .

(٢) الفيء : الخراج : المقصود خزينة الدولة .

(٣) متألفاً : أي يتحجب اليهم بالخلق الكريم ، والمعاملة الطيبة ليوثق العلاقة بينهم وبين الجهة التي يمثلها .

(٤) حليما : أي صاحب أناة وعفو وسعة في الصدر .

(٥) استجلاب : استخراج .

(٦) استقضاء حقوقه : استيفاء الحقوق كاملة .

(٧) الاستشفاف : هو محاولة رؤية ما وراء الشيء ، كناية عن كثرة الاختبار ، وفي مقدمة « ابن خلدون : « فليختبر أخلاقه » واستشفاف الثوب هو نشره في الضوء للتفتيش عن عيوبه .

كما يستشف الثوب يشتره لنفسه ، فاذا عرف حسنها
وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال لصرفه
عما يهواه من القبح ، بألف حيلة ، وأحسن إدارة
ورفق . فقد عرفتم أن سائس البهيمة اذا كان حاذقاً^(١)
بسياستها التمس^(٢) معرفة أخلاقها ، فان كانت رموحاً^(٣)
اتقاها من رجلها ، وان كانت جموحاً^(٤) لم يهجمها اذا ركبها ،
واذا كانت شמושاً^(٥) توقاها^(٦) من ناحية يديها ، وان
خاف منها عضاضاً^(٧) توقاها من ناحية رأسها ، وان كانت
حروناً^(٨) لم يلاحها ، وتتبع هواها في طريقها ، وان استمرت
عطفها^(٩) فيسلس^(١٠) له قيادها .

» ومن هذا الوصف ، من سائس البهيمة ورفق

(١) حاذقاً : ماهراً .

(٢) التمس : طلب .

(٣) المقصود بالرموح هنا : الدابة التي ترفس .

(٤) الدابة الجموح : العاتية ، التي تخرج عن طوع صاحبها .

(٥) الشמוש : النفور ، وفي بعض النصوص شبوبا ، والشبوب هي الفرس
التي ترفع يديها .. تجمع بهما .

(٦) توقاها : اجتنبها وحذرها .

(٧) عضاضاً : عضاً .

(٨) الحران : هو أن تقف الدابة عن الجري وترجع الى الوراء في الوقت
الذي يطلب منها الركض الى الامام .

(٩) عطفها : ردها .

(١٠) يسلس : يسهل .

سياسته ، دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم
وصحبهم .

« والكاتب بفضل رأيه ، وشرف صناعته ، ولطيف
حيلته ومعاملته لمن يحاوره^(١) وينظره^(٢) ، ويفهم عنه .
ويخاف سطوته^(٣) ، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته ،
وتقويم أوده^(٤) ، من سائس البهيمة التي لا تحير^(٥)
جوابا ، ولا تعرف خطأ ولا صوابا الا بقدر ما يصيرها اليه
سائسها ، وصاحبها الراكب لها ، فأدقوا^(٦) — يرحمكم
الله — النظر ، وأعملوا فيه الروية^(٧) والفكر ، تأملوا

(١) يحاور : يراجع في الكلام .

(٢) ينظره : يجادله .

(٣) سطوته : قهره .

(٤) الأود هنا : الاعوجاج .

(٥) لا تحير : لا ترد .

(٦) أدقوا النظر : أي استعملوا دقة النظر ، وورد أمعنوا .

(٧) الروية : التفكير والتأمل .

من صحتموه - إذن الله - النبوة^(١) ،
والاستثقال^(٢) والجفوة^(٣) ، ويصيروا منكم الى الموافقة ،
وتصيروا منهم الى المواساة^(٤) والشفقة ان شاء الله .

« ولا يجوز^(٥) الرجل منكم في هيئة مجلسه
وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه ، وبناءه وخدمه ، وغير
ذلك من فنون أمره ، قدر صناعته ، فانكم - مع ما فضلكم
الله به من شرف صناعتكم - خدم لا تحتملون في خدمتكم
على التقصير ، وخزان^(٦) وحفظة^(٧) لا يحتمل منكم
التضييع والتبذير^(٨) ، واستعينوا على عفافكم بالقصد^(٩)
في كل ما عددت عليكم فنعم العون عونكم على صيانة
دينكم ، وحفظ آمائتكم ، وصلاح معاشكم ، واحذروا

(١) النبوة : الجفوة أو الإبعاد .

(٢) الاستثقال : الشعور بالثقل والكرهية .

(٣) الجفوة : من الجفاء : وهو ضد البر .

(٤) المواساة : العطف .

(٥) لا يجوز : أي لا يتجاوز : لا يتعدى .

(٦) خزان : جمع خازن .

(٧) الحفظة : جمع حافظ ، وهو الموكل بالشئ ليحفظه .

(٨) التبذير : هو تفريق المال اسرافاً .

(٩) القصد : الاعتدال والرشد ، والاستقامة .

متائف السرف^(١)، وسوء عاقبة الترف^(٢)، فانهما يعقبان^(٣) الفقر ، ويدلان الرقاب ، ويفضحان أهلها ، ولا سيما الكتاب . »

« وللأمور أشباه ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا في مؤتف^(٤) أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة^(٥) ، وأرجحها حجة ، وأحمدها عاقبة ، واعلموا ان للتدبير آفة وضدا لا يجتمعان في أحد أبدا ، وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ^(٦) عمله ورويته^(٧) ، فليقتصد الرجل منكم في مجلس تدبيره قصد الكافي^(٨) في منطقة ، وليقتصد^(٩) في كلامه ، وليوجز^(١٠)

(١) السرف : ضد القصد ، تجاوز الحد والافراط .

(٢) الترف : الاكثار من التمتع .

(٣) يعقبان : يخلفان : أي تكون النتيجة هي الفقر .

(٤) مؤتف : إئتف واستأنف بمعنى أخذ في الأمر وابتداه . أي فيما هو جديد عليكم من الأمور .

(٥) المحجة : الطريق .

(٦) انفاذ : اجراء .

(٧) الروية : التفكير في الأمر .

(٨) الكافي : المقتنع .

(٩) ليقصد : ليقصد .

(١٠) ليوجز : ليوجز .

في ابتدائه ، وليأخذ بمجامع^(١) حججه^(٢) ، فان ذلك مصلحة لعقله ، ومجمة^(٣) لذهنه ، ومدفعة^(٤) للتشاغل عن اكثاره ، وليضرع الى الله في صلة توفيقه ، وامداده بتسديده ، مخافة وقوعه في الغلط المضر بدينه وعقله وأدبه ، فانه ان ظن منكم ظان ، أو قال قائل ، ان الذي برز من جميل صنعته ، وقوة حركته انما هو بفضل حيلته ، واصالة^(٥) رأيه ، وحسن تدبيره ، كان متعرضا لأن يكله^(٦) الله الى نفسه ، فيصير منها الى غير كاف^(٧) ولا يقل أحد منكم أنه آدب وأعقل ، وأحمل لعبء التدبير والعمل من أخيه في صناعته ، فان أعقل الرجلين عند ذوي الألباب^(٨) القائل ان صاحبه أعقل منه ، وأحمقهما الذي يرى انه أعقل من صاحبه ، لعجب هذا بنفسه ، ونبذ^(٩) ذلك ، العجب

(١) مجاميع الشيء : جميع أجزائه .

(٢) حججه : أدلته .

(٣) مجمة لذهنه : أي معينا على اجتماع أفكاره من الجمام وهو الراحة .

(٤) مدفعة : أي أبعاد : المعنى ان التركيز في ايراد الأدلة يفنيه عن الاكثار دونما طائل .

(٥) أصالة الرأي : جودته .

(٦) يكله : يسلمه يتركه .

(٧) غير كاف : لا يكفي ، أي لا يجد من يكفيه .

(٨) الألباب : العقول .

(٩) نبذ : طرح .

وراء ظهره ، اذ كان الآفة العظمى من آفات عقله ، ولكن
قد يلزم الرجل أن يعرف فضل نعمة الله عليه ، من غير
عجب برأيه ، ولا تزكيه^(١) لنفسه ، ولا تكاثر^(٢) على أخيه
وكفته^(٣) ، ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته •

« وأنا أقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل ،
« من تلزمه النصيحة يلزمه العمل » وهو جوهر^(٤) هذا
الكتاب ، وغرة^(٥) كلامه ، بعد الذي فيه من ذكر الله عز
وجل ، فلذلك جعلته آخره وختمته به ، تولانا^(٦) الله
واياكم — معشر الكتاب — بما يتولى به من سبق علمه في
سعادته وارشاده ، فان ذلك اليه وييده ، والسلام عليكم
ورحمة الله • » اه •

(١) ولا تزكية لنفسه : أي مديح لها •

(٢) تكاثر : تفاخر •

(٣) كفته : مثيله •

(٤) جوهر هذا الكتاب أي أساسه وقوامه •

(٥) أي أوله أو أهمه وأكرمه وأفضله •

(٦) تولانا : نصرنا ورعانا •

نظرة تحليلية

إذا ألقينا نظرة تأمل على هذه القطعة البديعة من نثر عبد الحميد ، نجد أنه :

(١) من ناحية الموضوع •

قد اختار موضوعاً حيويّاً ، هامّاً ، تتصل أهميته بالدولة التي تعتمد على هؤلاء الكتاب (الموظفين) في إدارة شؤونها ، وعلى تنظيم العلاقة بينها وبين الشعب ، وهم المؤتمنون على أسرارها وأخبارها ، وأموالها •• ويعتبر صلاح هذه الفئة صلاحاً للدولة ، ونجاحاً لسيطرتها ، واستتباباً لأمنها وطمأنينة شعبها ••

وتتصل أهمية هذا الموضوع أيضاً ، بهذه الفئة من الناس •• فإن رسم الطريق الصحيح السليم أمامها ، دستوراً واضحاً لخير معين على تكوين الكاتب الناجح ، ومن ثم ، تمهيد الطريق أمامه لمستقبل زاهر ، يحقق طموحه في الوصول الى أعلى المناصب وأرفعها •• وكأن عبد الحميد يعطي القدوة من نفسه ، ليصل بالناجح من هذه الفئة الى تسنم منصب الوزارة !

وقد عبر عبد الحميد عن أهمية عمل الكتاب ، بالنسبة
للدولة وللكتاب أنفسهم ، بما لا مزيد عليه !
ومما هو جدير بالتسجيل حقاً ، ان عبد الحميد في
هذه الرسالة قد خرج عن عادته .. فقد اعتاد أن
يُوجّه رسائله الى شخص بعينه ، أو فئة من الناس بعينها ..
وهو يفعل ذلك اما استجابة لأمر رؤسائه ، أو لحاجة شخصية
له .. ولكنه هنا يقصد الى هذا الموضوع قصداً ، بوازع
أسمى هو وازع التوجيه والارشاد، وبحوافز ذاتية محضة ..
وكانه يكتب مقالة لتشر في صحيفة ، أو يضع كتيباً بين
أيدي القراء .. وهذا مما يميز هذه الرسالة بميزة خاصة .
وقد عبّر عن هذه الميزة الدكتور « عمر فروخ » في
كتابه (تاريخ الأدب العربي) ، بين يدي النص الذي أورده
من الرسالة ، حينما قال ص ٧٢٩ :

(هذه الرسالة تخرج عن معنى الرسائل الادارية ،
انهما في الحقيقة « موضوع في رسالة » ، أو هي أساس
لكتاب يؤلف في آداب الكتابة وقواعدها ..)
ويبدو ان هذه الحوافز الذاتية المحضة ، قد جعلت
هذه الرسالة أقرب الى النفوس من غيرها .
كما يبدو ان الكتاب كانوا أكثر حفاوة بهذه الرسالة

الموجهة إليهم ، لأنها (تخصهم) في الدرجة الأولى ، فاهتموا
بها اهتماماً خاصاً جيلاً بعد جيل ..

واحتفى بها المؤلفون ، فأورد بعضهم نصها كاملاً ،
وأورد أكثرهم منها فقرات •

يقول الدكتور حسين نصار في كتابه « نشأة الكتابة
الفنية في الأدب العربي » :

« .. هذه الرسالة ذات أهمية كبيرة في نظر دارس
الأدب العربي ، وخاصة حركة التأليف ، فهذه الرسالة
تشمل .. جلّ ان لم يكن كل ما يطلب من الكتاب ، كأنما
تضع القوانين التي يجب ان تسود على ديوان الرسائل ،
ويخضع لها من يريدون دخوله ، فهي ترسم لهم الآداب
الخلقية التي يجب أن يتحلوا بها ، ثم ترسم لهم الآداب
الثقافية ، فتقسمها الى ثقافة خاصة بالدين والفقه والتاريخ
والحساب ... ، وقد أثرت هذه النظرية في المؤلفين بعد
عبد الحميد ، فمنهم من أخذ فرعاً من هذه الثقافة ، فألف
فيه ، مثل ابن قتيبة^(١) الذي تناول الناحية اللغوية في
« أدب الكاتب » ، ومنهم من تناول الثقافة الخاصة مثل

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، من أئمة الأدب ، ولد
سنة ٢١٣ هـ ٨٢٨ م وتوفي ٢٧٦ هـ ٨٨٩ م .

الصولي^(١) في « أدب الكتاب » ، ومنهم من تناول الثقافتين العامة والخاصة ، مثل النويري^(٢) في « نهاية الارب في فنون الأدب » ، ومنهم من تناول الآداب الثقافية ، والآداب الأخلاقية جميعاً ، مثل القلقشندي^(٣) في « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ، ويصرح القلقشندي في الفصل الذي عقده لآداب الكتاب الخلقية فيقول : « أصل هذه الآداب الذي ترجع اليه ، وينبوعها الذي تفجرت منه ، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، التي كتبها الى الكتاب يوصيهم فيها » . ولكننا نقول إن هذه الرسالة ينبوع هذا الفصل ، والفصول الأخرى الباقية في كتابه ، أعني ينبوع جميع ما احتوته تلك الكتب التي ألفها الأدباء في بيان ما يحتاج اليه الكتاب ، وان كانوا في الحقيقة أضافوا بعض العلوم التي لم يفكر فيها عبد الحميد ، مثل الجغرافية والفلك وغيرها ، ولكن كل تلك العلوم كانت من إحياء عبد الحميد أيضاً »^(٤) اهـ .

(١) أبوبكر محمد بن يحيى بن عبدالله من كبار الأدباء، توفي سنة ٣٣٥ هـ ٩٤٦ م.

(٢) النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب القرشي التيمي البكري

ولد سنة ٦٧٧ هـ ١٢٧٨ م وتوفي سنة ٧٣٣ هـ ١٣٣٣ م .

(٣) أبو العباس أحمد بن علي ، توفي سنة ٨٢١ هـ ١٤١٨ م .

(٤) ص ١٣٢ .

ورجوع كتاب « صبح الأعشى »^(١) برمته الى فكرة عبد الحميد الكاتب ، هو الموضوع الذي توسع فيه الدكتور « مصطفى الشكعة » في كتابه « الأصول الأدبية في صبح الأعشى »^(٢) اذ يقول ان فكرة كتاب « صبح الأعشى » ومنهاجه ليست الا المبادئ السامية التي وصفها عبد الحميد الكاتب ووجهها الى جمهرة الكتاب من بعده نصحاء منه وارشادا ، والتي حرص على حفظها والعمل بها جمهرة كتاب العربية ، منذ أن وضعها عبد الحميد الى عصر القلقشندي وما بعده ، والتي ضمنها القلقشندي منهج كتابه كاملة غير منقوصة ..

ويقول أيضا « .. والقلقشندي يأخذ نصائح عبد الحميد ، ويترسم خطاه ، ويترجمها ترجمة أمينة الى دراسات مطولة ، ويقدمها في شكل أبحاث مستفيضة منفذا مبادئ عبد الحميد ووصاياه ، مبدأ بعد مبدأ ، ووصية بعد وصية » .

ثم يأخذ في شرح كلامه هذا مقارناً وصايا عبد الحميد ، بما عقد صاحب كتاب صبح الأعشى من أبواب في كتابه .

(١) نواة كتاب « صبح الأعشى » كانت مقامة وضعها القلقشندي : ارتكزت على مبادئ عبد الحميد ، في رسالته الى الكتاب ، ثم توسع فيها جدا ، حتى أصبحت كتاباً ضخماً .

(٢) ص ٦٦ وما بعدها .

ويذهب أيضا الى أن « ابراهيم بن المدبر »^(١) صاحب
« الرسالة العذراء » ، قد استمد أيضا أفكار رسالته
وعناصرها من رسالة عبد الحميد ..

يقول : « .. لا يفوت الباحث المدقق أن يرد كثيرا
من أفكار القلقشندي ومنهجه - بالاضافة الى عبد الحميد
- الى كاتب عربي فابه آخر ، اعتبر نفسه معلما للكتاب ،
ورائدا لهم ، وخليفة لعبد الحميد ، فآلف رسالة وجهها
اليهم ، تشبها بعبد الحميد ، أسماها « الرسالة العذراء »
هذا الكاتب هو ابراهيم بن المدبر ، ورسالته العذراء
رسالة قيمة مفرطة في الطول ، استقى روحها من الجاحظ
واستمد أفكارها ، وعناصرها من رسالة عبد الحميد ، انه
أخذ مبادئ عبد الحميد ، وأطنب فيها ، وجعل لها فروعاً
وأغصانا ، ومن هنا كان ابن المدبر وسيطا بين القلقشندي
وعبد الحميد .. » ص ٦٧

على أن هذا مجرد مثل لمن تأثر بعبد الحميد في رسالته
الى الكتاب ، واقتفى خطاه ، وليس محاولة لتفصيل مدى
ذلك التأثير .. وتعداد الذين تأثروا بها ...

(١) ابراهيم بن محمد بن عبد الله ابن المدبر « بفتح الباء المشددة » توفي سنة
٢٧٩ هـ ٨٩٣ م له الرسالة العذراء أخرجها الدكتور زكي مبارك .

فقد تميز نثر عبدالحميد على وجه العموم ، بأسلوب خاص ، اختطه لنفسه ، وأصبح به صاحب مدرسة ثرية هو امامها .. من أبرز خصائصها الترسل الذي لا يتقيد بالسجع ، واستعمال التحييدات .. (وهو أن يحمد الله عز وجل مرة بعد مرة ، ويثني عليه بالمحامد الحسنة ، متفننا في ذلك ..) ، وقد قال « المسعودي » في « مروج الذهب » : انه أول من استعملها في فصول الكتب . والميل الى الاطالة ، والاكثار من الجمل القصيرة المتلاحقة مع شغف بتحويل معاني الشعر الى النثر أو ما يسمى بفك الشعر أو حله وذلك بالاضافة الى ما يستقيه من معاني الآيات الكريمة والأحاديث النبوية ومعاني البلغاء والحكماء ممن سبقه .. وقد لخص الأستاذ « محمد كرد علي » رحمه الله أسلوبه في قوله :

« فهو مخترع طريقة ، وكاتب وصاف على الحقيقة ، استجمع كل شروط البلاغة ، فعُدَّ أمير المنشئين غير مدافع ، واستطاب الناس الى يومنا هذا أسلوبه المعجب المطرب » . ص ٨٢ (أمراء البيان) .

أما أسلوبه في هذه الرسالة ، رسالته الى الكتاب ،

فتميز بأن عبد الحميد لم يستعمل فيها التحميدات ، فهذه
كان يخص بها غالبا ما يكتبه على لسان الخليفة .. كما
أن عبد الحميد لم (يفك فيها الشعر) ، أعني لم يدرج بها
معاني لأبيات شعرية مألوفة .. فقد كان هنا يبنى موضوعه
بناء خاصا .. ويتجه به الى منحى معين فريد ! فكان
يسلسل أفكاره متتالية يأخذ بعضها ببعض ، مرتبة منسقة ،
حتى لذهب بعضهم الى أنه نقل هذه الأفكار من نظائرها
في الفارسية ، ولكن هذا الزعم يظل قولاً مرسلاً يعوزه
الدليل ! كما أوضحت ذلك من قبل .

أما جملة القصيرة المتتابعة ، التي هي سمة غالبية على
أسلوبه فتظل هنا بارزة ظاهرة ، فانظر اليه وهو يقول :
« فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي
يثق به في مهمات أموره الى أن يكون ، حليما في موضع
الحلم ، فقيها في موضع الحكم ، مقداما في موضع الاقدام ،
محجماً في موضع الاحجام ، ليناً في موضع اللين .. » الخ .
٣ - أما معانيه وأفكاره :

فان « عبد الحميد » يبدأ رسالته ببيان المنزلة الكبيرة
التي يتمتع بها الكتاب في المجتمع ، فهم يأتون في الطبقة
التالية للملوك وذوي السلطان ، فالوزراء ، وهم قمة طبقة

الكتاب ، انما هم في الواقع من الكتاب ، تدرجوا في مناصب الكتابة حتى وصلوا أعلاها ، وقد اجتاز عبد الحميد نفسه هذا الطريق ، حتى تسنم ذروته .

ثم يشرح أهمية العمل الذي يؤديه الكتاب بالنسبة للسلطة ، فهي لا تستغني عنهم ، وبها ينتظم شأنها . .
من اجل ذلك . . ينبغي أن يجتمع للكتاب من الأخلاق والخلال ، ماثم يشترط لغيرهم من الفئات « أحوج الى اجتماع خلال الخير المحموده » .

ثم يأخذ في وضع الدستور الذي يجب أن يتبعوه . .
فيتحدث عن الحكمة والحلم ، والعفاف ، والتعقل ، والشجاعة ، والعدل ، وصيانة الاسرار ، وبعد النظر ، وهي خلال الشخصية التي تأتي مع الطبع غالبا . .
ثم يتحدث عن خلال المكتسبة ، أو ما يجب أن يحرزها الكاتب عن طريق التعلم ، أو ما يسمى بالمؤهل في لغة عصرنا . . فيأخذ في ترتيب العلوم بحسب أهميتها ، على النحو السائد في عصره . .

وليس ثمة شك أن العلوم الدينية تأتي في المقدمة . .
وهذا شرط أساسي ، وهو شرط خالد لا ينبغي التخلي عنه في أي عصر فانه لا صلاح لدنيا الناس إلا بدين الله .

إذا فالبدء ، انما يكون بكتاب الله ، ومعرفة
الفرائض .. وقد اهتم بها عبد الحميد لاهيتها في القضايا
بصفة عامة والقضايا الميراثية بصفة خاصة .. ثم يتحدث
عن العربية ، ويذكر في أهميتها أنها « ثقاف ألسنتكم » ثم
الخط ، ورواية الأشعار ، ومعرفة غريبها ومعانيها .. وذلك
لصلة الشعر بالثقافة الديوانية .. ولأن الشعر يمدّ الكاتب
بشروة لغوية ونحوية ، وبمعلومات تاريخية وأدبية ..

ثم ينص على أهمية أيام العرب والعجم .. أي أهمية
دراسة أحداث التاريخ والسير ..

ولا يفوته أن يلفت النظر الى أهمية الحساب خاصة
للووظائف الحسابية أو المالية .

ثم يلتفت عبد الحميد بعد ذلك .. الى الحث على
الترفع ، والبعد عن مواطن الشبهات .. وكأنه حينما أتى
على ذكر الوظائف المالية ، أدرك حساسية وضع العاملين
بها ، وانها كثيرا ما يستهدفها الاغراء ، بيد أنه جعل
نصيحته عامة .. فان الاغراء ليس وقفا على الوظائف
الحسابية وحدها ، وان كان لها أكثر استهدافاً ..

« وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها ،
وسنفساف الامور ومحارقتها ، فانها مذلة للرقاب ، مفسدة

وليست المطاعم وحدها هي آفة الكتاب ، بل هناك مجموعة من الآفات ، لم يفت عبدالحميد أن يحذر منها وأن ينص عليها ..

فالسعاية والنميمة من الكتاب ، قد تؤدي الى التهلكة لقربهم من مصادر السلطة ، ولان الثقة بهم كثيرا ما تكون كبيرة ..

وهناك داء العظمة ، أو « النفخة الكذابة » التي قد يصاب بها بعض أصحاب المراكز الرفيعة .. فلم يغفل عبدالحميد عن النص على خطرهما ، وانها تؤدي الى جلب العداوة ، دونما مسبقات من الاحن أو الخطايا .. ان الناس يعتبرون الكبر ذنباً كبيراً في ذاته لأنه عملية استعلاء . ثم ينتقل « عبدالحميد » الى واجب الكتاب بعضهم تجاه بعض .. فيوصيهم بالتواد فيما بينهم ، وأن يتواصوا بما يليق بهم من أخلاق ..

فان نبا الزمان بواحد منهم ، فنال فقر أو مرض ، أو غير ذلك من نوائب الدهر ، فان على زملائه أن يعطفوا عليه ويواسوه ، حتى يرجع الى مألوف عادته ..

أما ان قعدت به السن ، عن المكسب ، ولقاء الأصدقاء ، فان من واجبه أن يكثرُوا وحدته بزيارتهم ،

ويشعروه ببقاء مجده ، عن طريق احترامه وتعظيمه ، وأن يجعلوه يحسن بأهميته عن طريق استشارته ، والرجوع الى رأيه ، والاستفادة من خبرته وقديم تجربته .. والفائدة هنا مزدوجة ففي الرجوع الى رأيه اضافة تجربته الى ما عندهم وفيه تأنيس له ..

ولا ينسى « عبد الحميد » ، أن يوصي في تأكيد ، بصاحب الولاء .. أو بمن ينتمي اليه الكاتب .. أو بتعبيره « من اصطنعه واستظهر به لحاجته » ، أو برئيس العمل . ومن توصياته المؤكدة أنه يطلب الى الكتاب أن يجعلوا مصلحة العمل ، فوق مصلحة أولادهم وأشقايقهم ، وأن يتحملوا مسئولية أعمالهم تحملاً كاملاً .. وأن يخلصوا فيها ، بحيث ينسون أنفسهم وذواتهم ، فإن بدأ في العمل اتقان واجادة ، أو ما يستحق الفخر ، أو حقق نجاحاً ظاهراً ، فإن على الموظف أن يعزو ذلك لصاحب الولاء .. أما اذا ظهرت أخطاء .. فيكفي أن يتحمل هو تبعة هذه الأخطاء دون رؤسائه « فليحملها من دونه » ..

وعلى ذكر الأخطاء ، فإن عبد الحميد يحذر منها ، كما يحذر من السأم ، الذي يأكل نفوس الموظفين ويدفع بهم الى نَمَطِيَّة رتيبة « روتينية » عقيمة .. ويذكر هنا أن مهنة الكتابة مهنة حساسة جداً بحيث تتأثر بأقل العيوب .

ولا يفتأ يوصي بصاحب العمل ، أو صاحب الولاء ،
فيؤكد الوفاء له ، وشكر نعمته ، واحتمال تصرفاته ،
والنصيحة له ، وكنمان سره ، والاجتهاد في تدبير أموره .
ولا يغفل عن التنبيه الى ضرورة التزام توصياته في
حالي الرخاء والشدة معا ، وفي السراء والضراء .

ويذكر عبدالحميد ، الكتاب بتقوى الله عز وجل ،
ومراقبته في عملهم ، لأن عملهم يتصل بمصالح الجمهور ،
فالخلق عيال الله ، وكأنه يشير الى الحديث الشريف ،
(الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعياله) .

وان من الرفق بالجمهور ، أن يكون الموظف أشد
حذبا وعظفا على الضعيف ، الذي لا يملك جولا ولا قوة
.. وقد لا يعرف شيئا عن الدوائر الرسمية ، ولا سير
المعاملات ، ولا مداخلها ومخارجها ، فقد يكون جديدا
عليها كل الجدة .

والمظلوم بلا شك أحق الناس بالرفق ، وأجدرهم
بالعطف ، فينبغي للموظف أن يأخذ بيده ، ويعمل على
نصرته ، وانصافه ممن ظلمه .. على أن يلتزم في ذلك
العدل .. فلا يتجاوز ..

والرجل الشريف ، صاحب المكانة اذا وقف على

مكتب الموظف .. جدير بلا شك بالاحترام والاحفاوة ..
فان ذلك يملأ نفسه رضا ، وبالتالي سيجعله يحمل عن
الموظف وعن رؤسائه احسن الانطباعات ومن هذا الباب
(تألف الرعية) .. حيث يستطيع الموظف اللبق ، أن
يعطي لكل حالة مفضاها .. ومن ذلك أن لا يصل الى
الرعية أذى عن طريقه ، مهما يكن نوع ذلك الأذى ..
ولا يجدر أن ينسى عبدالحميد ، شيئا هاما جدا
يوصي به الموظف ، هو الحرص على أموال الدولة فيوفر
ويقتصد ما وسعه الى ذلك سبيل ، ويعمل على أن لا يصل
الى أموال الدولة شيء من التبديد .. أو الاسراف ..
على أن هذا لا يحول دون الصرف الحكيم في سبيل
اعمار البلاد ، أو ما نسميه بانعاش الحركة العمرانية ..
أي انه يجب أن يضع المال في موضعه ..

ويعود عبدالحميد الى هيئة الموظف .. فيوصي أن
يكون متواضعا في مجلسه .. فان التواضع يعين أصحاب
الحاجات على مراجعته في حاجاتهم .. أما اذا اتخذ مجلسا
فخما ، أو مكتبا فخما في لغة العصر ، وأحاط نفسه
بالحجاب والخدم .. فان ذلك لا يشجع أصحاب الحاجة
من جمهور الناس على مراجعته ، في حاجاتهم أو شكوايهم .

والحلم وسعة الصدر ، يشجعان أيضاً على اقبال
المراجعين على الموظف ، لشرح أحوالهم وسير معاملاتهم
.. أو ما ينالها من تأخير أو مماطلة ، أو ما يضطدم به
بعضهم ، من عنجهية بعض الموظفين أو شراستهم ..
أما الموظفون ، الذين تقتضي أعمالهم جباية الاموال ،
واقضاء حقوق الدولة .. فان من واجب هؤلاء أن يُعنوا
بالرفق واللطف للحصول على الأموال المطلوبة ..

ثم ..
ما هي السياسة التي يتبعها الكتاب ازاء رؤسائهم ؟
لكي يستطيع أي موظف أن يرسم هذه السياسة ،
عليه قبل كل شيء .. أن يختبر أخلاق صاحبه .. ليعرف
أي نوع من الرجال هو .. ؟
فليتعرف قبل كل شيء .. على أخلاق صاحبه ،
وما يآلف من عادات ، وليدرس كل ذلك في استيعاب ..
لماذا يفعل ذلك ؟

أليجامله .. أو لينافق له ؟
لا .. ولكن ليدرك أخلاقه الحسنة فيعيّنه على كل
خلق حسن ، ويحقق كل مقاصده النبيلة ..
أما مواطن الضعف فيه .. أو عاداته السيئة ، فليعمل

على صرفه عنها ، وليتَّبَحِّها في نظره ، على أن يتم ذلك ،
(بالطف خيلة ، وأجمل وسيلة) ، حسبما يعبر عبد الحميد
الكتاب ، ويضرب مثلاً بسائس الحصان .. فان عليه أن
يعرف عادة حصانه ، فيسائسه بحسبها . وهو لا يضمن
في سبيل شرح ذلك بالفقرات الطويلة من رسالته ، ادراكا
منه لأهمية هذه النقطة .. وأثرها في علاقة الموظف برئيسه ،
وبعلاقتهما معا على سير العمل ..

إذاً فلا بد من استعمال الحكمة والروية ، والصبر ،
لضمان تحقيق مصلحة العمل من جهة ، ولتحقيق الألفة بين
الرئيس والمرئوس .. من جهة أخرى .

ومن أدب الوظيفة عند عبد الحميد ، أن لا يتجاوز
الموظف درجته الاجتماعية ، فيتخذ في هيئته ، وداره ،
وفرشه ، ومركبه ، وطريقة حياته ، ما يتجاوز به حدوده ..
ويصل به الى مضاهاة رؤسائه .. الأمر الذي يسبب ارهاقا
ماليا له ويترك آثاراً غير حسنة عند الآخر .. وقد يفسر
تفسيراً سيئاً .. ويفصح المجال لتساؤلات كثيرة منها
السؤال المعهود : من أين لك هذا ؟ ..

ويرى عبد الحميد ، ان الموظف ، مع شرف صناعته ،
انما هو مجرد خادم .. ونحن نشعر في هذا العصر ، ان

الموظف ، مهما سمت منزلته ، انما هو خادم للشعب ،
لا يقبل منه التقصير ولا الاهمال ..

أما أولئك الذين تحت أيديهم أموال الناس فهم أيضا
مجرد حفظة لهذا المال ، لا يقبل منهم التضييع ولا التبذير ..
ولكي يستطيع أن يوازن الكاتب بين راتبه ، وبين
تفقاته ، ينبغي له أن يلزم الاقتصاد ، ليتجنب أن يمد يده
الى المال الحرام من اختلاس أو رشوة ، أو غرق في الدين ،
فان الاقتصاد يقيه كل ذلك ، ويحفظه من حالة السوء
(واستعينوا على عفافكم بالقصد واحذروا متالف السرف ،
وسوء عاقبة الترف .. فانهما يعقبان الفقر ، ويدلان الرقاب،
ويفضحان أهلهما ولا سيما الكتاب) •

وينص عبد الحميد على الاستفادة من التجارب ،
والخبرات السابقة ، ويوصي ، على أن يقيس الموظف
ما يعن له من معضلات في عمله على مامر من تجاربه ،
فان المعاملات تتشابه (ويدل بعضها على بعض فاستدلوا
على مؤتلف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم) •
على أن التجربة وحدها ، ليست كافية في نظر -
عبد الحميد الكاتب ، فلا بد من التأمل ، وإمعان الفكر ،
لاتخاذ الطريقة المثلى ، واختيار أحسن الحلول ، وأحمدها

عاقبة .. وهو يعبر عن ذلك بقوله : « واسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة ، وأصدقها حجة ، وأحمدها عاقبة » .

ولكن للتفكير آفة ، وآفته أن لا يجد الموظف الوقت الكافي للتفكير ، حينما يمدد وقت « الدوام » في الاستقبالات ، والمجاملات ، والتمادي في الجدل ..

ان عبد الحميد لا تهوته الاشارة الى ذلك ، والى ان يصف العلاج ، وهو ان يقتصر الموظف في وقت دوامه على الضروري من المقابلات ، ومن الكلام ، وأن يوجز في نقطه وإجاباته ، وأن يركز حجه لئلا يشغله الاكثار في كل ذلك عن مصلحة عمله .

وهناك أمر من الأهمية في المكان الأول ، ينبه إليه عبد الحميد ، هو أن يلتزم الموظف التوفيق من الله عز وجل أولاً وآخراً فهو الذي يعصم من الخطأ ، ويهدي الحائر الى سواء السبيل !

ان التوفيق انما يستمد من الله عز وجل .. فان استولى الغرور على موظف ما ، فظن أن ما حقق من نجاح ، انما هو بفضل تدبيره ، ورجاحة عقله وذكائه ، وحسن

تصرفه ، فقد دخل الغرور الى نفسه .. والغرور عنصر هدام ، يقوض الأمجاد ، فان الله يكل المغرور الى نفسه ، ليرى عاقبة إعجابه ، حتى يؤول أمره الى أسوأ النتائج .. ويعالج أمر المنافسة بين زملاء ، وما قد يخامر بعضهم بأنه أجود في عمله من صاحبه ، وانه أكثر مداومة ومواظبة ، أو انه أكثر خبرة ، أو أكثر تحملاً للمسئولية .

ان هذا في نظر عبد الحميد لا يليق : (ولا يقل أحد منكم أنه أبصر بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ، ومصاحبه في خدمته ، فان أعقل الرجلين عند ذوي الأبواب من رمى بالعجب وراء ظهره ، ورأى ان أصحابه أعقل منه وأجل في طريقته .)

وغني عن البيان ان المنافسة التي يغنيها عبد الحميد هنا ، انما هي المنافسة غير الشريفة .. لا السباق الى الاتقان ، والمواظبة .. مما يترك أمر تقديره الى الرؤساء والمسئولين ، لا أن يمتدح به الموظف نفسه بين زملائه ، معجبا أو مكاثرا .. ولى ذلك يشير بقوله : (ان أعقل الرجلين عند ذوي الأبواب من رمى بالعجب وراء ظهره ،

ورأى أن صاحبه أعقل منه وجمل في طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعمة الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا يكثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيرته .) •

ثم يختم عبد الحميد رسالته بأن خلاصة رسالته هو أن النصيحة تلزم بالعمل •• ان الناصح نفسه ينبغي أن يكون قدوة للمنصوح ، وان المنصوح لا ينبغي له أن يتلقى النصيحة ، لمجرد العلم أو الاحاطة كما يقال في لغة الموظفين ، بل لا بد من الالتزام بالعمل بها •• ان النظام انما يسن للعمل به ، وقد وضع عبد الحميد نظاماً لا يريد أن يذهب بهاء ، بل لا بد من وضعه موضع التنفيذ ليؤدي الغاية منه ! •

الرسالة في مواد

كأنني بعبد الحميد الكاتب ، وقد أراد أن يضع نهجاً باقياً للكتاب ، يتبعونه على مختلف العصور •• وتيسيراً لتناول هذا المنهج الذي رسمه ، فقد قمت بإعداده في مواد •• على ما هو متبع اليوم في صياغة الأنظمة •

القسم الاول

الصفات التي ينبغي أن تتوفر في الكاتب

- ١ - أن يكون حليماً في موضع الحلم •
- ٢ - فقيهاً في موضع الحكم •
- ٣ - مقداماً في موضع الاقدام •
- ٤ - محجماً في موضع الاحجام : (أي ينبغي أن لا يكون متهوراً) •
- ٥ - ليناً في موضع اللين •
- ٦ - شديداً في موضع الشدة : (أي حازماً صارماً اذا اقتضى الأمر حزمًا وصرامة » •
- ٧ - مؤثراً للعفاف : (أي يقهر هواه ويؤثر جانب التعفف) •
- ٨ - والعدل والانصاف (ملتزماً للعدل) •
- ٩ - كتوماً للأسرار •
- ١٠ - وفياً عند الشدائد : (أي ان المفروض فيه أن يكون وفياً على مدى الايام ، ولكن وفاءه عند الشدائد يكون أكثر تأكيداً) •
- ١١ - عالماً بما يأتي ويذر (أي متأكداً من سلامة اجراءاته) •

- ١٢- يضع الأمور في مواضعها (أي يتخذ لكل حالة ما ينبغي لها من اجراءات) •
- ١٣- قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه فان لم يحكمه شدا منه شدواً يكتفى به (أي ان يكون عالماً فان لم يتيسر ذلك فليكن مثقفاً) •
- ١٤- يعرف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته ، ويهيء لكل أمر أهفته (مستفيداً من خبراته وتجاربته السابقة في الحياة) •

القسم الثاني

ثقافة الكتاب

- ١٥- نافسوا في صنوف العلم والأدب •
- ١٦- تفقهوا في الدين •
- ١٧- ابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل •
- ١٨- والفرائض (الفقه والمواريث) •
- ١٩- والعربية (أي علوم اللغة العربية ، من نحو وصرف وبلاغة ..)

٢٠- أجيلوا الخط .

٢١- أرووا الأشعار ، واعرثوا غريبها ومعانيها (الأدب) .

٢٢- ٠٠ وأيام العرب والعجم (التاريخ) .

٢٣- لا يضعفن نظركم في الحساب . (أي اتقنوا الرياضيات) .

القسم الثالث

ما ينبغي أن يكون عليه الكتاب

٢٤- ارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها .

٢٥- وسفاسف الأمور ومحاقرها (أي ما يحط من شأنكم

ويسيء الى سمعتكم) .

٢٦- نزهوا صناعتمكم .

٢٧- اربأوا بأنفسكم عن السعاية .

٢٨- والنميمة .

٢٩- وما فيه أهل الدناءة والجهالة .

٣٠- أيّاكم والكبر والعظمة .

القسم الرابع

واجب الكتاب حيال زملائهم ورؤسائهم

- ٣١- تحابوا في الله عز وجل في صناعته .
- ٣٢- تواصلوا عليها .
- ٣٣- وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ،
حتى ترجع إليه حاله : (مواساة الزميل) .
- ٣٤- وان أقعد الكبير أجدكم عن مكسبه ولقاء اخوانه
فزوروه وعظموه (رعاية المسنين) ، .
- ٣٥- وشاوروه ، واستظروا بفضل رأيه وتجربته ، وقديم
معرفته (الاستفادة من تجارب الآخرين) .
- ٣٦- ليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم
حاجته أحذب وأحوط منه على أخيه وولده (الاخلاص
في العمل ، وطاعة الرئيس ، والوفاء له لمصلحة العمل)
- ٣٧- وان عرضت في العمل محمداً فليضيفها الى صاحبه ،
(الاخلاص وارجاع فضل اتقانه الى الادارة أو المصلحة
التي ينتمي إليها) .
- ٣٨- وان عرضت مذمة فليحملها من دونه (تحمل التبعة
بالنسبة لنفسه ولغيره ، تقديرأ لوحدة العمل) .

القسم الخامس

تعليمات عامة للكتاب

- ٣٩- ليحذر السقطة : (الأخطاء الكبيرة) •
- ٤٠- والزلة : (حتى الأخطاء الصغيرة العارضة) •
- ٤١- والملاال عند تغير الحال (ليحذر السأم والملاال وليكن دأبه توخي مصلحة العمل في الرخاء والشدة والغضب والرضا) •
- ٤٢- ليراقب الله تعالى ذكره •
- ٤٣- ليؤثر طاعته : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) •
- ٤٤- ليكن بالضعيف رفيقاً •
- ٤٥- للمظلوم منصفاً •
- ٤٦- ليكن بالحق حاكماً •
- ٤٧- للأشراف مكرماً ومدارياً •
- ٤٨- للنهى موفراً (ليصن أموال الدولة) •
- ٤٩- للبلاد عامراً (عاملاً على انعاش الحركة العمرانية) •
- ٥٠- للرعية متألماً : (أي محتفظاً بالعلاقات الطيبة مع الجمهور) •

- ٥١- ليكن في مجلسه متواضعاً : (بعيداً عن التكلف في مجلسه ومكتبه) .
- ٥٢- حليماً .
- ٥٣- ليناً .
- ٥٤- رفيقاً (عند استخراج حقوق الدولة) .

القسم السادس

معاملة الرؤساء

- ٥٥- اذا صلب أحدكم الرجل (الرئيس) فليستشف خلائقه .
- ٥٦- اذا عرف حسنَهَا وقبيحَهَا ، اعانه على ما يوافقه من الحسن : (يعينه على الخير) .
- ٥٧- واحتال لصرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة ، وأحسن مداراة ورفق (صرفه عن الشر بحسن السياسة) .
- ٥٨- أدقوا النظر . (حققوا في دراسة نفسية رؤسائكم) .
- ٥٩- وأعملوا الروية والفكر : (في الطريقة التي تعاملونه بها) .

القسم السابع

توصيات مسلكية ومغاشية

- ٦٠- لا يجوزن الرجل منكم في هيئته ، ومجلسه ، وملبسه ، ومركبه ، ومطعمه ، ومشربه ، وبنائه ، وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره ، قدر صناعته (الزموا الاعتدال)
- ٦١- افكم خزان وحفظة لا يحتمل منكم التضييع والتبذير (احذروا الاستهانة بأموال الدولة) •
- ٦٢- استعينوا على غفافكم بالقصد (الاقتصاد) •
- ٦٣- نعم العون عونكم على صيانة دينكم (احرصوا على تقوى الله ، والخوف من عقوبته) •
- ٦٤- وحفظ أمانتكم • (احرصوا على الأمانة في عملكم وصيانة أسرارہ وأمواله) •
- ٦٥- احذروا متائف السرف • (احذروا الاسراف) •
- ٦٦- وسوء عاقبة الترف (مرة أخرى قاوموا الترف) •
- ٦٧- والأمور أشباه ، وبعضها دليل على بعض فاستدلوا في مؤتلف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم • (استفيدوا من خبراتكم السابقة) •

٦٨- اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة •
(تخيروا أحسن الطرق وأسهلها لأداء أعمالكم ،
أي قاوموا الروتين) •

٦٩- فليقصد الرجل منكم في مجلس تديره • (أي فليعمل
جاهداً على أن يكون وقت دوامه مخصصاً لعمله ،
خالصاً له) •

٧٠- ويقصد في كلامه • (لا داعي للثرثرة أثناء أداء
العمل ، لأنها مضيعة للوقت •)

٧١- وليأخذ بمجامع حججه (لتكون تعليماته موجزة ، قاطعة
واضحة) •

٧٢- ليضرع الى الله في صلة توفيقه (ليكن اعتماده دائماً
على الله) •

٧٣- فان ظنّ منكم ظان ، أو قال قائل ، إن الذي يحذر من
جميل صنعته ، وقوة حركته انما هو بفضل حيلته
وأصالة رأيه ، وحسن تديره ، كان متعرضاً لأن يكله
الله الى نفسه • (اياكم والغرور والغفلة عن استشعار
فضل الله) •

٧٤- ولا يقل أحد منكم انه آدب وأعقل ، وأحمد لعبء

التدبير والعمل من أخيه في صناعته، فإن أعقل الرجلين
عند ذوي الألباب القائل إن صاحبه أعقل منه ،
وأحفظهما الذي يرى أنه أعقل من صاحبه • (اياكم
وعجب الشخص بعمله ، وازدراء أعمال زميله) •

٧٥- من تلزمه النصيحة يلزمه العمل • (أي لا بد من
تطبيق الوصايا والمبادئ والعمل بها) •

وعبد الحميد في هذه الفقرة يسلك مسلكاً لطيفاً
فيبين بأنه يوصي نفسه أولاً ويعمل بهذه النصائح ، وفي
هذا ما فيه من جذب القلوب إليه وإلى نصائحه الكثيرة ،
وهو يوحى الى كبار الموظفين بأن يكونوا قدوة لمن يليهم ،
إذا أرادوا توجيه شيء من هذه الوصايا أو غيرها لمن دونهم ،
فالناصح أولى بأن يكون مبتدئاً بنفسه عاملاً بما يوصي
غيره أن يعمل به •

المصادر والمراجع

- ١ - الأصول الأدبية في صبح الأعشى :
د. مصطفى الشكعة
من منشورات جامعة بيروت
العربية بيروت - دار الأحد
١٩٧١ م
- ٢ - الأعلام :
خير الدين الزركلي
ج/٤ الطبعة الثانية
محمد كرد علي
طبع دار الأمانة - بيروت
ط ٣ - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م
- ٣ - أمراء البيان
اسماعيل باشا البغدادي
طبع طهران سنة ١٣٧٨ هـ
ابن كثير
ج ١٠ / ط مطبعة السعادة
القاهرة
الجاحظ
- ٤ - إيضاح المكنون في الذيل
على كشف الظنون
٥ - البداية والنهاية
- ٦ - البيان والتبيين :
- ٧ - تاريخ آداب اللغة العربية
- ٨ - تاريخ الأدب العربي
- ٩ - تاريخ الأدب العربي
« العصر العباسي »
- ١٠ - تاريخ الأدب العربي
- د - شوقي ضيف
طبع دار المعارف ١٩٦٣ م
د - عمر فروخ
ج ١ ط ١ بيروت، دار العلم
للملايين ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م

١١- تاريخ الأدب العربي

١٢- تطور الأساليب النثرية
في الأدب العربي

١٣- جمهرة رسائل العرب في
العصور العربية الزاهرة

١٤- دائرة المعارف الإسلامية

١٥- ديوان المعاني :

١٦- رسائل البلقاء

١٧- الرسائل والكتابة

١٨- شرح العيون

١٩- شرح مقامات الحريري

٢٠- الشعر والشعراء

كارل بروكلمان

ج ١ طبع دار المعارف ط ١

أنيس المقدسي

طبع دار العلم للملايين

بيروت ط ١ / ١٩٦٠ م

أحمد زكي صفوت

ج ٢ / ط ١ / ١٣٥٦ هـ /

١٩٣٧ م

الترجمة العربية . ط ١

أبو هلال العسكري المتوفى

١٣٩٥ هـ نشر مكتبة القدسي

طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ

محمد كرد علي

طبع دار الأمانة ببيروت

ط ٣ - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م

عبد الحميد الكاتب

المطبعة الرسمية التونسية

١٣١٨ هـ

جمال الدين بن نباته المصري

المتوفى ٧٦٨ هـ تحقيق محمد

أبو الفضل إبراهيم

مطبعة المدني ١٣٨٣ هـ /

١٩٦٤ م

للشريشي

ج ٣ طبع سنة ١٣٧٢ هـ

١٩٥٢ القاهرة

ابن قتيبة الدينوري المتوفى

٢٧٦ هـ ج ٢ طبع دارالمعارف

بمصر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م

- ٢١- عيون الأخبار
 ٢٢- الفن ومذاهبه في النشر العربي
 ابن قتيبة الدينوري
 د - شوقي ضيف
 مطبعة الأندلس ط ٢ / م ١٩٥٦
 ابن النديم
 طبعة مصطفى محمد
 ٢٣- الفهرست
 أبو هلال العسكري
 ط ١ - دار احياء الكتب
 العربية ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م
 ٢٤- كتاب الصناعتين
 ياقوت الحموي
 طبع دار صادر ودار بيروت
 ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م
 ٢٥- معجم البلدان
 علي بن حسين السعودي
 المتوفى ٣٤٦ هـ طبع دار
 الأندلس - بيروت
 ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م
 ٢٦- مروج الذهب :
 عمر رضا كحالة
 مطبعة الترقى بدمشق
 ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م
 ٢٧- معجم المؤلفين :
 يوسف اليان سركيس
 مطبعة سركيس بمصر
 ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م
 ٢٨- معجم المطبوعات العربية
 والمصرية
 طبعة مصطفى محمد بالقاهرة
 د - زكي مبارك
 الطبعة الثانية مطبعة
 السعادة بالقاهرة
 ٢٩- مقدمة ابن خلدون
 ٣٠- النشر الفني في القرن
 الرابع

٣١- الوزراء والكتاب

٣٢- وفيات الأعيان

محمد بن عبدوس الجهشياري
المتوفى ٣٣١ هـ
الطبعة الأولى القاهرة
مطبعة مصطفى البابي
١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م

ابن خلكان المتوفى ٦٨١ هـ
ج ٢ / نشر مكتبة النهضة
المصرية

الفهرست

صفحة

المقدمة	٥
تمهيد	٧
الباب الأول - عبد الحميد الكاتب	
من هو عبد الحميد . نشأته . ثقافته ومكانته . عبد الحميد ومروان بن محمد . مع ابن المقفع . خاتمته . عقبه ، آثاره . هل كان شاعراً نثره ومدرسته	١٧-٤٦
الباب الثاني - رسالته الى الكتاب	
نص رسالته الى الكتاب - نظرة تحليلية - الرسالة في مواد	٤٩-٩١
المصادر والمراجع .	٩٢

من عبد الحميد الكاتب ..

... رسالة الكاتب المبدع « عبد الحميد الكاتب »

الى الكتاب ، تحفة أدبية لغوية ، عز وجود مثلها ، وهي
مما كتبه الرعيل الأول ، الذي نتلف الى الاطلاع على تراثه
العزیز ، والتثقف بثقافته الأصلية .. وهذه الرسالة
من أقدم ما كتب مما وصل إلينا ، وسرى فيها القارئ
ملامح عن أسلوب الكتابة في ذلك العصر ، ونوع العلاقة ما بين
الرئيس والمرءوس من المشتغلين بالدولة ، الذين نعب عنهم
الآن بالموظفين ..

جاءت رسالته أصيلة في لغتها ، بارعة في أسلوبها مليئة

بالمعاني الجليلة ، والحكم البليغة ، ونتائج تجارب طويلة ..

ناصر بن حمد الراشد
الرئيس العام لتعليم البنات